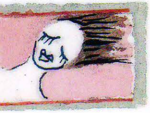

حنّا مينه

رِوَايَة

امْرَأَةٌ تَجْهَلُ أَنَّهَا امْرَأَة

دار الآداب

حنّا مينة

امرأة تجهل أنّها امرأة

رواية

امرأة تجهل أنّها امرأة
حنّا مينة/ روائي سوري
الطبعة الأولى عام 2009
ISBN 978-9953-89-113-2
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

ـ ١ ـ

كان نمر صاحب صحافيًّا لامعًا، ضليعًا بعلم النفس، له إلمام واسع بالتاريخ، عربيًّا وعالميًّا، وقد عاش حياةً ملأى بالمغامرات، وشعاره، أبدًا، العيش على حافّة الخطر، يُقبل على الحياة، لأنّ الحياة، في رأيه، جديرة بأن تُعاش، لذاتها أوّلاً، ولأنّ العيش جميل، كما قال ناظم حكمت، ثانيًا، ولأنّه، من خلال عيشه ونضاله، كان نمر على يقين، مؤسّسٍ على معرفة وتجربة، أنّ الحبّ أنواع، والموت أنواع، واللغز، بينهما، يبقى لغزًا لا مناص منه، ولا بديل عنه.

وكان، إلى ذلك، على يقين تامّ أنّ المصائب تأتي جملة، وحلّها يكون مفردًا، وبكبرياء صبر، ليس على طريقة أيّوب، فهو يلعن أيّوب وصبره المجّاني، الذي فيه مقايضة سخيفة، طريقها المستقيم رأسًا إلى الجنّة، وهيهات!

إنّ يقين نمر صاحب، بسيط وغير بسيط، بسيط لأنّ الحياة

كفاح، ومع الكفاح مصاعب وعقبات، وجَبْهُ هذه النوائب، مفردةً، لا بدّ له من شجاعة، والشجاعة، في تعريفه، هي الصمود للخوف لا نكرانه، فليس من مخلوق، بشرًا كان أو حيوانًا، إلاّ ويخاف؛ فالخوف أساس في حياة هذه البرتقالة الزرقاء التي اسمها الأرض. وعلى الإنسان، الكائن الذي يصدح فخرًا بكينونته، أن يتعلّم أمرين: الحبّ ونسيان الحبّ، الحقد ونسيان الحقد، ثم تحمّل الاثنين «وما عشت من بعد الأحبّة سلوةً/ ولكنّني للنائبات حمولُ». والنائبات كوارث من كلّ نوع، إلاّ أنّ نمر صاحب، في أوّل رحلة له بين اللاذقيّة والسويديّة، ما كان في باله، وما خطر له في هذا البال، أنّ ثمّة كارثة تنتظره، ولا فائدة من تحاشيها!

إذًا هي الكارثة، ولكن كيف؟ ومع الكارثة تتناسل كوارث، تأتّت جملة، وحلّها، كما علّمته الأيّام، مفردةً يكون، وفي الطريق، انطلاقًا من اللاذقيّة باتّجاه كسب، المصيف السوري الشهير، كان نمر فرحًا، مرحًا، يركب سيّارة بيضاء اللون، جميلة المنظر، قويّة، فارهة، تنطلق كالنسمة الرهوة، لا خرير لمحرّكها، أو ضجيج، أو قرقعة، تتبعه سيّارة أخرى، فيها عائلة من أقربائه، على رأسها صديقه فهيم اللّيث، صاحب فكرة الرحلة، ومنظّمها على عجل، وقد فوّضه نمر بقيادة الرحلة، باتّجاه السويديّة، عصب نهر العاصي، وفيها، كما أكّد فهيم، فندق ينتظرهم فيه أصدقاء، لإقامة نوع من احتفاليّة بهذه المناسبة!

بعد مفرق كسب، باتّجاه تركيا، أو مقاطعة هاتاي كما أصبح اسم لواء اسكندرونة، دُهش نمر صاحب، أن يخرج «رجال نقطة» الجمارك السوريّة لاستقباله، ما إن عرفوا بأنّه موجود مع الرحلة، وأن يعانقوه، ويقبّلوه، فرحين لأنّهم رأوا، أخيرًا، هذا الكاتب المحبوب، الذين هم من قرّائه. ثم تضاعف روعُ الاستقبال، في نقطة الأمن العامّ السوري، الذي أصرّ المسؤول فيه على استضافته ومن معه، وتقديم الماء البارد والقهوة للجميع، ريثما ينتهي ختم جوازات السفر ووضع التأشيرات اللازمة.

على الحدود التركيّة، كان هناك بولمان، وركّاب وأمتعة، وتجارة، ونساء ورجال يتعاطون هذه التجارة، وهي ناحلة، إلاّ أنّها تخضع للتفتيش الدقيق، لمصادرة ما هو ممنوع، والسماح بما هو غير ممنوع، وهذه العمليّة تحتاج إلى وقت، وإلى صبر، وتحمّل حرّ آب اللهّاب، الذي يشوي، أو يكوي، أو يدفع الناس إلى اللواذ بالفيء، حيثما أمكن ذلك، وبأيّ شكل كان ذلك، وفي هذا الازدحام، الذي تصادف، لسوء الحظّ، مع وصول نمر صاحب ومن معه، إلى الحدود التركيّة، الحدود التي لا يعرفون أحدًا فيها، وعليهم، كما على غيرهم، أن ينتظروا دورهم، ريثما تنتهي الإجراءات اللازمة، وهي غير قليلة، وغير سهلة، لكنّها موجودة، ومألوفة، على كلّ حدود، بين دولة وأخرى. إلاّ أنّ نمر كان يعرف التركيّة، وفي هويّته أنّه مولود في

السويديّة، فتكلّم مع ضابط الأمن التركي، شارحًا له أنّه، ومن معه، ليسوا تجّارًا، بل سيّاحًا، وأنّهم يصطحبون أمتعتهم فقط، وليس فيها ما هو ممنوع، أو يدخل في خانة التجارة، فاقتنع الضابط المثقّف، وبعد استلام جوازات السفر، مرّوا بسلام.

بعد دخول الأراضي التركيّة، كان الطريق ضيّقًا، متعرّجًا، مثيرًا للغبار، في هذا المنعطف أو ذاك، ولم يكن هذا بغريب على نمر، فقد عرف الدنيا في جهاتها الأربع، وكان يقول عن نفسه: «أنا مسافر بلا حقيبة!» والسفر بلا حقيبة له مفهوم خاصّ، عند المناضلين والسياسيّين، وكان هو من هؤلاء المناضلين القُدامى، ومن السياسيّين القُدامى، وشهرته، في هذين المجالين، هي التي صنعت مجده، إضافة إلى الكتابة، التي أغنت هذه الشهرة، سواء في اللاذقيّة، حيث النضال ضدّ المستعمرين الفرنسيّين، وضدّ الإقطاع، وفي سبيل نصرة الفقراء والبؤساء والمعذّبين في الأرض، أو في دمشق، ضدّ كلّ صنوف القمع، أو حُطَم أقلام الكتّاب، ومحاولات استزلام المثقّفين، إيمانًا منه أنّ الكتابة في تعارض مع السلطة، وهذا التعارض قائم في كلّ الأنظمة، وصدق من قال: «قلمي لا تكن كالعاهرات/ للذي عنده فلوس تؤاتي» فالقلم المستزلم ليس بقلم، إنّه خشبة نخرة مصيرها الحرق!

بعد الانطلاق قال نمر للسائق:

اتبع سيّارة فهيم اللّيث، قائد هذه الرحلة، فلا تسبقها أو تتأخّر عنها.

أطاع السائق الذي كان فضوليًّا، ثرثارًا، محتالاً، وراح، في الطريق الضيّق المتعرّج الذي لم يألفه نمر، يقصّ حكايات فيها الشكوى وفيها التمدّح، زاعمًا أنّه يجمع بعض المال لعائلة فقيرة، مدقعة، واصفًا سَعْيَه هذا: إنّه لوجه الله الكريم، لا يبتغي من ورائه سوى فعل الخير، وإنّه يعرف نمر، ويقرأه، ويقدّر عبقريّته، ويعتزّ بشهرته العالميّة.

هذه التملّقات السخيفة، الكاذبة، كانت مسلّية، وكان نمر صاحب راغبًا في التسلية، والإصغاء، بغير ملل، وهذا من عادته، ومن عادته، الغريبة بعض الشيء، أنّه يدفع المال لمن يسلّيه، وهذا السائق وفّر له هذه التسلية المنشودة، فسأل وهو يشعل سيكارته:

ـ كم تحتاج هذه العائلة الفقيرة التي تتحدّث عنها؟

أجاب:

ـ عوزها المدقع يحتاج الكثير، لكنّني، كرجل شريف، أكره الطمع بطبعي، فما تدفعه، حسنة عنك، فيه الكفاية.

ـ هذا جيّد، وأنا أعرف من أنت، لكنّني، رغم هذه المعرفة، أعرض عليك عقد صفقة هي لصالحك..

ـ أنا، يا معلّمي، مستعدّ لتعدّ الصفقة التي تريدها، لكنّها لصالح هذه العائلة، ومن يفعل الخير.. كيف يقولون؟

ـ لا يعدم جوازيه.

ـ سمعت بهذا القول المأثور، لكنّني، للحقّ، لم أفهم عبارة «جوازيه».

ـ أي جزاء الخير..

ـ جميل.. كلّ ما هو جزاء خير كسبٌ لمرضاة الله وحده.. ما هي هذه الصفقة؟

ـ أن تتحدّث أنت، وأسمع أنا!

ـ يعني تتسلّى!

ـ نعم! أتسلّى.

ـ وتدفع المال كي تتسلّى؟

ـ أدفعه إلى العائلة الفقيرة!

ـ أنا هو العائلة الفقيرة!

ـ كنت أعرف هذا من أوّل الطريق، لكن ما هو الفارق؟ لا فارق هنا، ما دمت سأدفع على كلّ حال.. أنت، يا صاحبي، تتعامل مع نمر صاحب، فكيف نسيت هذا؟ نمر صاحب يكسب ويخسر مثل كلّ إنسان، لكنّه لم يخسر هذه المرّة.. ربح الجولة

لأنّه «عرف ما كان يعرفه مرّة أخرى» كما يقول ألبير كامو . .

ـ من أيّ بلد ألبير كامو هذا؟

ـ من ديار بكر!

ـ أنت تمزح.

ـ أنا أتسلّى . . أين نحن الآن؟

ـ قرب أنطاكيا . . لكنّنا لن نمرّ بها . . صاحبك قائد الرحلة يمضي نحو السويديّة التي أصبحنا على أبوابها . .

ـ اتبعه ما دام هو قائد الرحلة . . متى نصل إلى الفندق؟

ـ أيّ فندق هذا؟

ـ الفندق الذي ينتظرنا فيه أصدقاء تواعد معهم كما قال لي!

ـ ليس في السويديّة فندق ولا بلّوط . . هناك خطأ!

ـ صدقتَ . . هذه الرحلة خطأ في خطأ منذ البدء . . والربح الوحيد هو صحبتك . . أنت طريف جدًّا، اتبع قائد الرحلة والله وليّ التوفيق!

ـ لكنّنا اجتزنا السويديّة كلّها . . صاحبك يمضي لا أدري إلى أين.

ـ اتبعه قبل أن يغيب عنك . . نحن، في هذه الرحلة قاطرة

ومقطورة، هو القاطرة ونحن المقطورة. . وبغير كلام!

ـ طبعًا بغير كلام. . كسبنا في هذه الرحلة صداقتك يا أستاذ. .

ـ ومع الصداقة بعض المال للعائلة الفقيرة. .

ضحك السائق وقال:

ـ كشفتني والله. . نعم! أنا هي العائلة الفقيرة، والله علاّم الغيوب، لكنّك يا أستاذ من أطرف الناس. . لم أسمع من قبل بأحد يدفع المال مقابل التسلية. . هذه ليست نكتة، هذه حقيقة. . وقد أحببتك بصدق، لذلك سأبقى معك، أنا في خدمتك. . سيّارتي وأنا في خدمتك. .

ـ هذا الكلام الحلو في القول، لن يكون حلوًا في التطبيق. .

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أنّ الفكرة الجميلة قد تَكون قبيحة في التطبيق. . هذه قاعدة أغلب الأحيان. .

ـ تقصد عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان!

ـ تمامًا. .

ـ سامحك الله. . ها قد وصلنا والحمد لله. . كانت رحلتنا طريفة ومفيدة، تعلّمت فيها بعض الأشياء منك.

ـ مثل ماذا؟

ـ إنّ حبل الكذب قصير.. مع أنّني صادق! تفضّل بالنزول، الحمد لله على السلامة.. لكنّني، مع الأسف، مضطرّ إلى السفر هذه الليلة، وسأعود غدًا!

ـ أنت لن تعود أبدًا.. ستكون مشغولاً بتسليم هذا المبلغ للعائلة الفقيرة.. والبحث عن زبون مغفّل مثلي!

ـ حاشاك أستاذ.. أنت أفهم مَن عليها.

ـ ومغفّل أكثر من عليها.. خذ هذا المبلغ للعائلة الفقيرة.. تذكّر أنّك كنت معي ليوم كامل.. «وارو عنّي طالما الدهر روى!» هل تحبّ قصيدة الأطلال!

قال وهو يدسّ المال في جيب بنطاله:

ـ بشرفي أحبّها، وأحبّك، وأحبّ أمّ كلثوم!

ـ والعائلة الفقيرة أيضًا!

ـ استرْ عليّ، سَتَرَ الله على حريمك..

وسترت عليه، فلم أذكر اسمه، ولا فهلويّته، ولا طريقته في الاحتيال، مع أنّها كانت طريفة، مبتكرة، لم أسمع بمثلها من قبل!

ولأنّ السترة على هذا السائق المحتال كانت وعدًا، فلم

أُخلف بوعدي، ولم أتحدّث بشأنها حتى مع قائد رحلتنا فهيم اللّيث، هذا الذي كان يحمل، مع عائلته، الجنسيّتين: السوريّة والأميركيّة، وكان موضع إعجابي في هدوئه، وفي تقبّله للنقد، وفي تحليل الأمور تحليلاً موضوعيًا، منطقيًّا، وفي ابتسامته التي ترفّ رفًّا على شفتيه، أو في لهجته الآمرة، المحبّبة، التي تسرّك ولا تغيظك، لأنّها، في الأصل، لهجة مَنْ يعرف أنّه لا يقصد الأمر فعلاً بل تسلية، ويتكلّم اللغة التركيّة، التي يحفظ منها جملة أو جملتين، برنّةِ خرير الساقية، من حيث السرعة أو التدفّق، أو طريقة الإلقاء، ليعود، بعدها، إلى اللغة العربيّة قائلاً: «ما علينا!» أو «خلّونا في المهمّ!» حتى لو لم يكن هناك ما هو مهمّ في الحديث الجاري!

ما عدا ذلك، كان فهيم اللّيث يتكلّم، بطلاقة، عدّة لغات، وأهمّها اللغة الفرنسيّة، التي يجيدها كالفرنسيّين الأقحاح، ثم الإنكليزيّة، والإسبانيّة، وله ذاكرة عجيبة، لا تخيب؛ فما إن تبدأ نشيدًا متداولاً بالإسبانيّة، حتى يكمله لك، ويضيف إليه المناسبة التي أنشد فيها.

لقد اعتاد نمر صاحب الضغط على أعصابه، التزام الهدوء في المواقف الحرجة، قلب السلب إلى إيجاب، التفكير ثم الإقدام، فإذا لم يكن هناك مجال للإقدام، بُغْيَةَ الوصول إلى ما هو أفضل، مال إلى التسلية، إلى الشراب، إلى دعوة الصحب

للشراب معه، الجلوس إلى طاولته، دون أن يدع أحدًا يدفع، وقد اعتاد حتى الغرباء عنه، إذا ما صادف وجلسوا إلى طاولته في مقهى، مقصف، كافتيريا، أو في أحد النوادي، ألاّ يحاولوا الدفع، لأنّ ذلك غير جائز في شرع نمر، ولأنّ الذين يعرفونه من النُدُل، يرفضون قائلين:

ـ ألم تكونوا على طاولة نمر صاحب؟

ـ نعم كنّا!

ـ إذن مع السلامة!

هذا الجنون، أو هذه العادة الغريبة بالنسبة للآخرين لم تكن جنونًا، أو عِتْه شيخوخة مبكرًا، كانت خوتةً من خوتات إنسان يرغب في أن يشاركه في الغداء إنسان آخر، أو أخرى، وبذلك تكون الشهيّة أفضل، ومع الشهيّة يكون الحديث، وهذا الأخير هو المقصود بغير قصد، أو بقصد مبهم، ما دام فيه نفع لكاتب يريد أن يعرف، أو يطّلع، من الخارجين من بيئته المحلِّيَّة، على تشكُّلات وتحوّلات هذه البيئة المحلِّيَّة، يقينًا منه أنّ طريق العالميّة يبدأ بالمحلِّيَّة، وإلاّ كان الطموح إلى الخروج من ربقتها باطلاً، وظلّ السعي إلى المعرفة شكليًّا، ما دامت المعرفة، في العمق، لها مصدران، الكتب أوّلاً، والناس ثانيًا، والتعلّم من الناس دون الاختلاط بهم، صعب المنال، أو غير ذي نفع، أمّا الاختلاط بالناس، فقد يكون صعبًا في البدء، نابيًا أو فضوليًّا

في نظر الكثيرين، لكن لا بدّ منه، شريطة أن تُحسِنَ الإصغاء، وتُحْسِن، بقدر أكبر، كيف تستدرج الذين تتحدّث معهم، أو تتحدّث إليهم، للبوح عمّا في سرائرهم أو لإخراج ما في الباطن إلى الظاهر، في هذا الذي تتحدّث معه، لا بخلاً منه، بل جهلاً بقيمة ما هو مكنون في صدره، كمثل المحارة التي في جوفها لؤلؤة، وتجهل قيمة هذه اللؤلؤة، إلى أن يوفّق غطّاس ما، في استخراج هذه المحارة، من أعماق البحر إلى سطوحه، وفضّ بكارة المحارة التي في جوفها لؤلؤة.

لو كان للكارثة لسانٌ، لما قالت إنّني كارثة، ولو كان، فَرَضًا، لها لسان لما قالت ذلك أيضًا، إمّا عن غفلة أو غباء أو جهل، فالذي يقوم بعمل خطير، لا يقول مسبقًا إنّني سأقوم بعمل خطير، والذي يقوم بثورة لا يقول، عادةً، إنّني سأقوم بثورة، إنّه يعدّ لها بصمت، أو ما يشبه الصمت، ثم يفجّرها في وقتها، سواء نجحت أو فشلت، وهذه، في المثل، حال كارثتنا، فقد حدثتْ، حين لم يكن يتوقّع نمر أنّها ستحدث، وبعد حدوثها كان عليه تحمّل نتائجها، دون أن يدري متى أو كيف!

«لا تقل شِئنا فإنّ الحظّ شاء» إنّما الحظّ يرتكز على أساس، ظاهر أو مستتر، وهذا الأساس مغامرة، ومن ذا الذي يزعم أنّ الحبّ ليس مغامرة!؟ كلّ ما في وجودنا له نسب، إلى الحظّ منتماه، غير أنّ التجريد لا يكون بالمطلق، والفعل الذي ينطوي

عليه، ولو تجريدًا، لا يكون بالمطلق، فالحقيقة المطلقة كذبة بلقاء، الحقيقة نسبيّة، وكلّ ما في حياتنا نسبيّ أيضًا، وما عدا ذلك باطلُ الأباطيل.

هناك كارثة، وهناك بلوى أشدّ من الكارثة، وبلوى نمر صاحب أنّ دماغه لا يأخذ إجازة إلاّ في النوم، وحتى في النوم، أحيانًا، لا يأخذ دماغه هذه الإجازة، يظلّ يعمل، والتأذّي، من هذا العمل، يرهقه، يميته صبرًا، فيعمد إلى الشراب، وفي الشراب ينسى الناسُ همومهم، إلاّ نمر صاحب يشرب ليتذكّر، ومع الذكريات يسيح في عالم غير عالم الذين معه، أو حوله، وكم مرّة قال: «اللعنة على الذكريات فقد اغتالتني!». وذكرياته عن كارثته، في هذه الرحلة، كانت موجعة، شديدة الإيلام، انبثقت من الغيب، وجاءت بالتدريج، فتحمّل وزر الوقوع في شركها، دون أن يجد سبيلاً إلى دفعها، لأنّها من صنعه، من تغامره، حتى بعد أن تقدّم في العمر، آن على المرء أن يلوذ بالسكينة، بعيدًا عن الضجّة، وتصبح المرأة بالنسبة إليه كائنًا مؤنسًا، في البيت، أو المدينة، أو الترحال، أو السفر البعيد، خارج بلده، أو عالمه، في رجوة أن ينسى المرأة في الجنس، أو الجنس في المرأة، أو يُدرك أنّه، في العمر الذي هو فيه، صار بيت المسنّين ملاذه الطبيعي!

تبقى مسألة مهمّة جدًّا، قد تحدث مع هذا الإنسان، ولا

تحدث مع ألف إنسان، في هذه الحياة الدنيا، وهذه المسألة بسيطة ومعقّدة في آن، إنّها انتفاضة الذي تقدّم في العمر، لغاية أغلب الأحيان، ولغير غاية في بعض الأحيان. وهذه الانتفاضة اللاغائيّة حدثت مع نمر صاحب، أكثر من مرّة، في استواء رجولته، وفي كهولته، وشيخوخته أيضًا، دون دافع إليها، في يقين ظاهري، لكنّها، في الحقيقة، بدافع داخلي ناتج عن تراكم أشياء في ذاته، وعندما بلغ التراكم ذروته، تحوّل من كمٍّ إلى نوع، انقلب الهدوء إلى ما يشبه الغليان، أصبح تعبيرًا عن ذات ساكنة، تحوّلت إلى ذات متحرّكة فجأة، في مجرى طبيعي وموضوعي في آن، ما دامت الحركة هي الأصل، والسكينة رغاء انتشر، بكثافة، فوق هذه الحركة، فحجب صورتها موقّتًا.

أمّا لماذا انفجر نمر صاحب؟ وكيف كان انفجاره؟ ولماذا حدث في هذا الوقت وليس في غيره؟ فإنّ ذلك مردّه إلى أنّ النفس البشريّة في تنوّع لا حصر له ولا قياس، فلو علم صاحب النفس ما هي نفسه، لأصبح حكيمًا، ولكان الحكماء من البشر، في تفوّق عددي على الذين لا حكمة لديهم، ولا يسعون إليها، وقد لا يريدونها، وربّما، كما عند هذا المبدع أو ذاك، ينادون بقتلها، حين هي حكمة عاديّة، أو مبتذلة، والتجدّد الذي لا توقّفَ فيه عند المبدعين، والعباقرة تخصيصًا، يدفعهم لاإراديًّا إلى نبذها، إنكارها، كرهها، ثم الدعوة الصارخة إلى اغتيالها، وحذفها من قاموس الوجود!

الانفجار حدث. . نعم! أمّا لماذا؟ وكيف؟ وما هو السبب؟ فإنّ الكلام عليه قد يفسّره، وقد يقتله، كما في حال الكلام على الحبّ، الذي هو وحده وليس سواه، من يقتل الحبّ «بتسألني بحبّك ليه؟ سؤال غريب ما جاوبشي عليه!».

ـ ٢ ـ

كان المكان الذي توقّف فيه الركب، بقيادة فهيم اللّيث، في آخر نقطة عن السويديّة، قريبًا من البحر، كرمى لعيونك، قال فهيم لنمر، لأنّك بحراني الهوى، فأجاب نمر «هذه لفتة نبيلة منك، غير أنّ البحر، على هذا الشاطئ الصخري، البعيد نسبيًّا، ليس من هواي في شيء، إنّه قريب من الأفق، وقد لا نرى، من هذا المكان، التوهّج الذهبي لقرص الشمس المباركة، وهو يغوص في زرقة الماء، ومهما يكن فإنّك قائد الرحلة، وقد أضمرتُ منذ البدء ألاّ أعترض، ما اسم هذه الاستراحة واسعة الأرجاء؟».

ـ استراحة المنارة!

ـ وأين هي المنارة؟

ـ على رأس الجبل من خلفنا!

ـ وما اسم الجبل الذي من خلفنا؟

ضحك فهيم اللّيث وقال بنبرته الآمرة التقليديّة:

ـ «ولان بوردا دنيز يا يلاسي» (يا فلان هنا مصيف البحر!).

ضحك نمر بدوره وقال:

ـ شوقَ كوزال أميرلاي أفندي! (جيّد يا حضرة الأميرال).

كانت الصالة واسعة الأركان، فيها بعض الطاولات وبعض المقاعد، تديرها سيّدة تركيّة مليحة الوجه، مربوعة القامة، ريّانة الزندين العاريين، ومعها شابّ طويل القامة، أخضر العينين، تخاله من فرسان القرون الوسطى، أو من نبلاء زمن الإقطاع، وقد ارتاح نمر لروية السيّدة وابنها، فوضع حقيبته قرب الطاولة التي جلس إليها، وفورًا طلب زجاجة من البيرة المبرّدة، ثم ثانية وثالثة، مردّدًا في سرّه «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم» مندمجًا في حديث مع السيّدة صاحبة الحانة، و«الأميرال» قائد الرحلة يرى إليه مسرورًا، دون أن يعرف ما يُقال، بعد أن استنفد كلماته القليلة الآمرة باللغة التركيّة، وانتهى من ترتيب شؤون عائلته، وما معها من حقائب وأكياس سوداء ملأى بأنواع وأنواع من مصرورات الشاي والسكّر والرزّ وراحة الحلقوم وغيرها وغيرها!

كان فهيم اللّيث مربوع القامة، على امتلاء في الجسم، وبشاشة في الوجه، يأنس للوجه الحسن، ويعمل بالخفاء، على

قاعدة: «وإذا ابتليم بالمعاصي فاستتروا» ناكرًا نكران «كاد المريب أن يقول خذوني» أيّ ميل منه نحو أيّ امرأة غير زوجته ذات البقايا من جمال الصبا الماضي.

قال فهيم اللّيث، الذي لقّبه نمر بالمِلسان، لأنّه يُجيد العديد من اللغات الحيّة، مثل الفرنسيّة والإنكليزيّة والإسبانيّة وغيرها، ولسانه زلق فيها كلّها، كأنّه من أصحابها، قال وهو يجلس إلى طاولة نمر، صديقه ورفيقه في الرحلة:

ـ إلى أين وصلنا؟

ـ إلى الزجاجة الثالثة. . البيرة التركيّة فاخرة، تذوّقها معي يا سيّدي الأميرال!

ـ ومن أين جئت بهذا اللّقب اللعين؟

ـ اشرب هذا الكوب من البيرة أوّلاً، وتذكّر، ثانيًا، أنّنا بايعناك بقيادة هذه الرحلة دون تحفّظات أو شروط، ثم، ثالثًا، كنت قائدًا بارعًا وبرتبة أميرال بحري تخرّج من كلّيَّة «شنق قلعة» زمن السلطان عبد الحميد، طيّب الذكر!

شرب فهيم جرعات من البيرة، وبعد أن تلمّظ شفتيه مغتبطًا قال:

ـ أراك ذبت هيامًا، ومن اللقاء الأوّل، بصاحبة هذه الحانة!

ردّ نمر ضاحكًا:

ـ قل سخسخت، كما قالت شيرين والبوليس المصري يضبطها تحت عادل إمام على شاطئ الإسكندريّة!

ـ وما هي السخسخة؟

ـ ذوبان المرأة تحت الرجل وهي تقترب من القذف.

ـ تفسير غريب لكنّه ملائم.. هل اقتربت السيّدة صاحبة هذه الحانة من السخسخة، أم هناك وقت مستقطع بعد؟

ـ السخسخة لا تكون على الواقف أو الجالس سيّدي الأميرال!

ـ كيف تكون إذًا أيّها العجوز المُسخْسخ!؟

ـ تكون على النائم ليس إلاّ..

ـ ولماذا ليس إلاّ..؟

ـ لأنّها شرطيّة على ذمّة الزمخشري..

ـ وتفسيرها؟

ـ في قلب الشاعر كما يقولون.

ـ وما شرطيّتها؟

ـ أن تكون على النائم فقط لا غير.. وفقط لا غير تعني أن يكون النوم أوّلاً، وتاليًا لا يهمّ كيف يكون، سواء كان على

الأرض، أو البلاط، أو الحصير، أو السرير، أو الغبراء أو الرمضاء.. أو...

ـ كفى! فهمت.. هذه البيرة لذيذة فعلاً.. زِدْني منها!

ـ أنت تأمر يا صديقي، لكن كلمة زدني غير مستساغة عندي، والسبب أنّ المدعو كاظم الساهر، وهو مطرب كبير فعلاً، ومحبوب من النساء أصلاً وفصلاً، قتل المرحوم نزار قبّاني وهو يردّد، صباح مساء: «زيديني عشقًا»!

ـ وماذا تقول أنت للمرأة؟

ـ لا أقول شيئًا.. لا وقت لديّ للمفاوضات!

ـ أيّ مفاوضات؟ إنّها كثيرة هذه الأيّام، وكثيرة أيضًا التحليلات.. فهذا، رعاك الله، محلّل سياسي، وذاك محلّل عسكري، وذيّاك ديبلوماسي.. إلخ.

ـ هذا الكلام الموضوعي الجميل جدير بالاحتفال.. أيّها الساقي أدر كأسًا وناولها «كي أشق أصان ولي مفتات مشكلها!».

ـ ماذا يعني هذا التخبيص؟ وكيف فهم البارمان عليك؟

ـ البارمان فهم بإشارة من يدي.. أمّا «أيّها الساقي أدِرْ كأسًا وناولها» فإنّها شطر بالعربيّة، من قصيدة للشاعر الشيرازي الإيراني، وبقيّة بيت الشعر بالفارسيّة ومعناه «الحبّ أوّله لذيذ

وآخرهُ مشكلة» لذلك حرّمت الحبّ على نفسي، فالمعروف عنّي أنّني، في حياتي، كلّها، لم أحبّ ولم أسكر. . أنا محروم من هاتين النعمتين وا أسفاه! ماذا نأكل يا قائد الرحلة، بعد أن بشمنا من البيرة؟

ـ وماذا لديهم؟

سأل نمر صاحبة الصالة ثم أجاب:

ـ ليس عندهم غير السمك!

تأفّف قائد الرحلة فهيم اللّيث وقال:

ـ السمك، هنا، مجمّد. . أي مثلّج. .

أفرغ نمر ما تبقّى من البيرة وقال:

ـ كلامك، يا صديقي، مجروح، فيما يتعلّق بالسمك خصوصًا. . قلت لي مرّة: أنت مرتاح يا نمر، لأنّه لا إخوة لك، أمّا أنا فقد أعدمت كلّ إخوتي. . تك، تك، تك. . واسترحت. . أعترف. أنت مثقّف، وثقافتك الفرنسيّة موضع إعجابي. . لكن حكمك على السمك فيه تسرّع. . كلّ السمك عندك مثلّج ومستورد. . لا! هناك سمك طازج، وصاحبة الصالة لا تغشّ، أو لا تستطيع أن تغشّني في موضوع السمك. . انتظر. .

نهض نمر وعاين السمك، نظر تحت غلصمتيه، وعاد ليقول:

ـ السمك طازج وممتاز، سنأكل سمكًا اليوم مرغمين، فقد أخبرتني السيّدة، وكذلك ابنها، أنّهم، هنا، لا يقدّمون طبيخًا.. أعني لا رزّ ولا فاصولياء، أو «طبّاخ روحو» أو «حرّاق إصبعو»، كما هي أسماء بعض الطبخات الشاميّة.. أمّا طبيخ «اللاذقيّة» فأنت أدرى به.

ـ وماذا مع السمك؟

ـ البيرة والوجه الحسن! لا مقبّلات من أيّ نوع.. أنت الذي جئت بنا إلى هنا، فتحمّل نتائج قيادتك الحكيمة.. أو التاريخيّة كما يقولون في الوطن العربي، ودون مبرّر سوى عقدة النقص التاريخي عربيًّا.

قال فهيم اللّيث:

ـ لي تعليق على عقدة النقص هذه، عندما يكون لدينا وقت لحديث كهذا، لكن اطلب من السيّدة صاحبة هذا المكان..

ـ الجميل!

ـ جميل أم قبيح لا فرق.. سنتحدّث عن هذا أيضًا بعد أن نستريح، وبما أنّك تتكلّم اللغة التركيّة بطلاقة تُحسد عليها، ولأنّك، كما يبدو، ظاهريًّا على الأقلّ، قد صارت لك ألفة سريعة مع السيّدة صاحبة المحلّ، تفضّل واطلب منها أن تضع لنا بعض الطَرطور كي نستطيع ابتلاع شرائح السمك الذي تزعم

أنّه طازج، وأزعم أنا أنّه مثلّج. .

ـ قلتَ مناكِدًا، يا صديقي قائد الرحلة، هذا السمك مثلّج. . فما قيمة «الطرطور» اللعين هذا؟ وإذا كان ما بُني على فاسد فهو فاسد، حسب القاعدة الفقهيّة فما العمل. ثم أنت في هاتاي، لا في سنجق اسكندرونة مثلّث الرحمات. .

قال نمر ذلك ورفع زجاجة البيرة المثلوجة إلى فمه، مستندًا إلى طول بال صديقه قائد الرحلة، مفكّرًا بموضوعيّة «الطرطور» وكيف يجد لها الصيغة المؤاتية والمقنعة باللغة التركيّة.

هنا تدخّلت السيّدة زوجة قائد الرحلة، في محاولة لفكّ الاشتباك، فقالت جادّة:

ـ مسألة «الطرطور» ليست مسألة صعبة. . قليل من الطحينة مع البقدونس، وكشتبان من الماء، وهذا كلّ شيء. . اسأل هذه السيّدة عن الطحينة والبقدونس فقط. .

قال نمر:

ـ وإذا كنت لا أعرف اسم الطحينة والبقدونس بالتركيّة فماذا أفعل!؟

قال زوجها:

ـ علامَ إذن كان «طقّ الحنك» طوال هذه الجلسة، بينك وبين صاحبة المحلّ وابنها!؟

ـ في شيء أهمّ من «الطرطور» والسمك وطول الرحلة وقيادتك الموفّقة لها.

ـ وما هو هذا الأهمّ يا عجوزنا المتصابي!؟

خافت الزوجة فقالت:

ـ هل سكرت يا فهيم! اسحب كلمة المتصابي هذه واعتذر عنها!

قال نمر:

ـ السكر بالنسبة لي لا طعم له بغير مجون، فأنا، لعلمكِ، ماجن على الشرب، وكلمة «عجوز» هذه دعابة محبّبة. . إنّها مثل الملح بالنسبة للطعام، وسيّدنا المسيح قال: «إذا فسد الملح بماذا نملّح؟» وعلى «فوقة» قولة اللبنانيين، ماذا بشأن «الطرطور» الذي لا يؤكل السمك دونه؟

قال فهيم بلهجته الآمرة:

ـ تترجم أنت بالتركيّة، أم أحاول أنا باللغة الفرنسيّة!؟

ـ لا! كلّ شيء إلاّ الفرنسيّة. . يا أخي أرجوك، إذا بدأتْ محاضرتُك بالفرنسيّة كما هي العادة، فلن نأكل سمكًا أو بطّيخًا اليوم، أنا ذاهب إلى المطبخ. . لحظة وأعود. .

توجّه نمر إلى المطبخ تتبعه السيّدة صاحبة المحلّ. . ثم عاد وهو يضحك قائلاً:

ـ وجدتها! هكذا صاح أرخميدس من فرحٍ.

ـ وماذا وجدت؟

ـ الطحينة والبقدونس معًا.. هم أيضًا، أولاد عمّنا هؤلاء، يأكلون السمك مع الطرطور، لكنّ اللّفظ يختلف.. نحن نقول «طرطور» وهم يقولون «تاراتور»، والفارق الوحيد هو بين الطاء والتاء!

فكّر نمر: فرحنا، في هذا الشرق، قصير، وحزننا طويل، لذلك نقول إذا ضحكنا: «الله يجعل ضحكنا على خير» ولم يكن ضحكنا، هذه المرّة على خير، فبعد الغداء صعدنا إلى غرف النوم في الطابق الفوقاني، وما إن دخلت الغرفة التي وضعوا حقيبتي فيها حتى كاد يُغمى عليّ، ولم يُجْدِ احتجاجي أو تشفّعي، فالغرفة مثل قنّ الدجاج، وليس هناك غيرها، في هذه الليلة على الأقلّ!

وضع نمر حقيبته جانبًا، دون أن يفتحها، ولشدّ ما تكرّرت عادته هذه، في سفره الطويل، فهو يتنقّل من فندق إلى فندق، وفي الغرفة، وغالبًا في الجناح (السويت) الذي ينزل فيه، يتريّث في فتح حقيبته احتسابًا لأيّ مفاجأة، من جار ثقيل، أو جارة فضوليّة، أو نادل ثرثار، أو ضجّة طنّانة في الشارع المجاور، أو انتظار خائب لهاتف من صديق، في بلاد لا يحترم الناس فيها المواعيد، خلافًا لعادته في دقّة مواعيده، والأنكى من ذلك كلّه

أنّ أغلب هؤلاء الناس لا يأتون في الموعد، ولا حتى يعتذرون عنه!

كان نمر يصف مزاجه باللعين، وهو صادق في ذلك، وفي سرّه يقول «أنا متقلّب المزاج كالفتاة «صحبتني على الفلاة فتاة/ عادة اللون عندها التبديل» وفي تبدّل مزاج نمر، هناك ثبات واحد: «أنا لا أسكن إلاّ في بيت أبي، وأبي ليس له بيت في البرّ أو البحر!» ولهذا يفضّل الفنادق دائمًا، فإذا ارتاح في أحدها، وطابت له الكتابة، طلب من العاملين في الاستقبال بشكل صارم: «لا هواتف ولا زيارات» ومَن يُخالف قامت قيامته!

مجنون! نصف عاقل، ونصف مجنون، ومجنون كامل في بعض الأحيان، لكنّه، خارج أوقات الكتابة، دمث الأخلاق، عذب الحديث كريم اليد، يَزور ويُزار، يحبّ الشاعر جرير، ويُعجب من قوله في زوجته المتوفّاة «لولا الحياء لهاجني استعبار/ ولزرتُ قبركَ والحبيب يُزار»! فيعلّق نمر قائلاً: طظّ في الحياء، وفي صبر أيّوب أيضًا، وفي سقراط الذي شرب السمّ طاعة للقانون، تاركًا لنا قدوة نكراء في طاعة القوانين التي هي في خدمة الحكّام الذين يسنّونها!

الغرفة ضيّقة، الحقيبة لم تُفتح، إلاّ أنّ فكر نمر صاحب شغّال، وبليّته الدائمة في فكره الشغّال هذا، وفي عجزه عن

إيقاف هذا الشغل، وفي اجترار أفكار تلحّ عليه دون سبب ودون مبرّر، وأشدّها إيلامًا إذا تعلّقت بالمرأة، هذه الموجودة بكثرة في غير أوانها، وغير الموجودة في أوانها، وفي زفرة حرّى يردّد: «تعبت من الأحلام في جسدٍ/ ملّ العفاف بألوان من الألمِ!» ذلك أنّ هذه الأحلام تكون داعرة في بعض الليالي!

ومن منطلق الدعر تذكّر رئيفة وجدان، التي التقاها مصادفة على الحدود التركيّة، فرازها والشبق ينزّ في عينيه، ورازته والغلمة تنزّ في عينيها، وقد اقتحمت عليه الآن خلوته، في غرفته الضيّقة، وحقيبته المغلقة، فتشهّى اللّهب في جسده، والقهر في مضمر حشاه، من هذه الرحلة العَجِلة، بقيادة صديقه الذي لا يأكل السمك إلاّ مع «الطَرَطور» والذي ينام مع السيّدة زوجته في غرفة بعيدة نسبيًّا، وواسعة نسبيًّا، بينما تسكن ابنته واجدة، الجميلة واللطيفة، في غرفة مقابلة لغرفة نمر، واسعة لا شكّ، لكنّ الأكياس والصرر التي جلبها والدها معه تملأ أرض هذه الغرفة، متناثرة حتى تحت السرير الذي تنام عليه ابنته اللطيفة.

رئيفة وجدان امرأة غير عاديّة، إنّها دليلة وليست دليلة، ونمر صاحب ليس شمشون الجبّار، وليس في رأسه خصلة شعر، هي مصدر قوّته الهائلة ومكمنها، وتقويض الهيكل «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ» مسحوب على المستقبل، وكذلك المصادفة، إنّما رئيفة ليست داعرة، وليست بريئة من الدعر، إنّها امرأة في

ملقميها سمّ زعاف، تجيد التملّق، تتملّق بحسنها المعروض للتأجير، والمتخفّي تحت رقاقة من براءة، وهذا هو انطباعه الأوّل عنها، والانطباع الأوّل يبعث على الحيرة، فلو كانت تتعاطى الدعارة لما عملت بهذه التجارة البائسة على هذا النوع المهين، ولو لم تكن معروفة، بتجارتها هذه، من قِبَل رجال جمرك الحدود التركيّة، لما عُوملتْ باستهانة قاسية، اضطرّ معها نمر صاحب للتدخّل بغية إنقاذها، والحيلولة دون مصادرة ما معها، إلاّ أنّها، في المقابل، تبدّت غير متمنّعة عن قبول المال في المغلّف الذي أعطاه لها، بعد أن بادرت إلى إعطائه رقم هاتفها في إنطاكية، فما تفسير كلّ ذلك؟ «إنّ في الحسن يا دليلة أفعى/كم سمعنا فحيحها في سرير!» ولماذا، وهو في هذه الورطة، تعتاده صورة رئيفة، تفرض نفسها عليه، تسكره بخدعة حسنها، فيغدو، وهو البصير البصير، كالضرير الضرير!؟

جاء فتى في سنّ المراهقة إلى غرفة نمر، يسأله عمّا إذا كان مرتاحًا في غرفته الصغيرة هذه، ولمّا رأى الحقيبة مغلقة، وكذلك «الصامصونايت» أدرك أنّ هذا النزيل، الذي يتكلّم التركيّة، ويشرب البيرة ويخرج، والذي راق للخانم صاحبة النزل وابنها، يحتاج إلى مساعدة، وهو، الفتى عليّ، في وسعه مساعدته، على أمل الانتفاع منه، لذلك سأله:

ـ لماذا لم تفتح الحقيبة؟

قال نمر:

ـ كيف أفتحها وهذه الغرفة الصغيرة، الحقيرة، لا تتّسع إلاّ للنوم، على هذا السرير الخشبي الضيّق، غير اللائق بإنسان يحتاج إلى الراحة بعد سفره الطويل، من دمشق إلى اللاذقيّة، ومن اللاذقيّة إلى السويديّة في مقاطعة هاتاي.

ظلّ الفتى عليّ واقفًا، متأثّرًا قليلاً، بسبب وضع نمر الذي كان فرحًا، مَزوحًا، مكثرًا من شرب البيرة في الصالة، وقد أُعجبت به الخانم وابنها، وأرسلا عليًّا لمساعدته إذا ما كان بحاجة إلى مساعدة، مع إبداء الأسف إذا ما كان غير مرتاح في هذه الغرفة، وليس هناك سواها.

أشعل نمر سيكارة وقال:

ـ طبعًا أنا غير مرتاح، أُريد غرفة أخرى.. انزل إلى الخانم وقل لها، عن لساني، إنّ بقائي في هذه الغرفة مستحيل!

ذهب عليّ وعاد كما ذهب: لا توجد غرفة أخرى مع الأسف، والخانم ترتاح قليلاً في غرفة نومها.. وابنها مشغول ببعض الزبائن الذين يشربون ويعربدون.. إنّهم سكارى كما يبدو.. فماذا في وسعي لأجعلك مرتاحًا يا معلّمي؟

ـ لا أريد هذه المروحة العتيقة المقرقعة.. أخرجها من الغرفة!

قال عليّ:

ـ صعب البقاء في الغرفة بغير مروحة..

قال نمر:

ـ وصعب أن أتحمّلها وثيابي مبلّلة من التعرّق.. الأفضل إخراجها من الغرفة، حتى أخلع ثيابي دون أن أتيبّس بهواء المروحة البارد!

قال عليّ الذي يتكلّم العربيّة بطلاقة:

ـ عندي اقتراح سيّدي.. شكرًا أنا لا أدخّن..

ـ وما هو اقتراحك؟

ـ في طرف الغرفة مربّع صغير، فيه مرحاض وماء ساخن.. ما رأيك أن تخلع ثيابك الداخليّة وتنشرها قليلاً في الهواء، على بلاط الشبّاك، وأقوم أنا بتغسيلك فترتاح قليلاً.. تعال، تفضّل، اجلس على هذا الكرسي الصغير، واترك الباقي عليّ، أنا مثل ابنك، ولي خبرة في التحميم، لأنّي، قبل العمل عند الخانم، كنت أجيرًا في حمّام عامّ للرجال!

خلع نمر ثيابه المبلّلة حتى الاستنقاع، وستر عورته بيده وأسلم نفسه للفتى قائلاً:

ـ ستنال الخير على يديّ يا ابني.

قال عليّ:

ـ سأكون في خدمتك ما دمت عندنا. .

جلس نمر على كرسي في المربع الصغير، قريبًا من المرحاض، وراح الفتى يمزج الماء الساخن بالماء البارد في جرن من حجر، مستخدمًا يديه الماهرتين، وهو يقول:

ـ لا تستحِ منّي يا عمّ. . افرد رجليك وفخذيك، اتركني أغسل جيّدًا حوضك، حالبيك، عدّة الرجولة عندك. . ففي هذا الحرّ، وبعد الذي عانيته في سفرك الطويل، وتعرّق جسمك إلى درجة التصاق ثيابك الداخليّة عليه، يعطي الاغتسال راحة لا مثيل لها للإنسان. . صدّق ما أقول، أنا ابن كار وأعرف ما يفيد وما يضرّ، أحسنت بإخراج المروحة من غرفتك، الهواء البارد يضرّ الجسد المتعرّق. .

قال نمر في سرّه:

ـ هذا الفتى نعمة من الله، مكافأة من السماء على كلّ ما قاسيته من عذاب الرحلة. . البيرة التركيّة جيّدة، شربت منها حتى ارتويت، أكل السمك في الصيف غير مستحسن، لكن ما العمل إذا كنّا جائعين، وليس من طعام غيره!؟ البيرة الباردة خفّفت من أذاه، وكان كلّ شيء على ما يرام لولا هذه الغرفة التي هي زنزانة تتّسع لشخصين فقط، حسب تعبير أحد الأصدقاء

في دمشق. . الاستحمام مفرجة للهمّ، غير أنّ الفرج شابته بعض الشوائب، فليس هناك برنس، ولا مناشف كبيرة، غير أنّ الفتى تدبّر الأمر بمنشفتين صغيرتين، كان نفعهما قليلاً بسبب التعرّق بعد الاستحمام بالماء الساخن، «ويا بائع الصبر لا تشفق على الشاري/ فدرهم الصبر يسوى ألف دينار». ورغم ذلك صبر نمر صاحب وصابر، دون أن يجديه ذلك نفعًا، لأنّ الثياب الداخليّة لم تجفّ، والحقيبة مقفلة، ولا بدّ من شراء ثياب داخليّة جديدة، فقال عليّ:

ـ أنا أدبّر الأمر يا عمّي، فلا تقلق.

لكنّ الأمر تدبّر نصفيًّا فقط، فالسوق بعيد، وفي هذه المنطقة النائية لا تُباع ملابس داخليّة، وعاد الفتى بنصف المطلوب، أي لباس قطني، ستر به نمر عورته، وارتدى قميصه فوق البنطال على اللّحم، وخرج إلى الباحة، في طابق غرفته الفوقاني، بانتظار جماعته من أعضاء الرحلة، وعلى وجهه يرين الانزعاج الشديد، لم يفلح التدخين المتواصل في تخفيف أثره.

جلس إلى طاولة، يبدو البحر رهيبًا قبالتها، وبعد قليل جاءت واجدة ضاحكة، لأنّها لم تنم بسبب الحرّ الشديد، وأكداس الصرر التي في غرفتها وحول سريرها وتحته، فبادرها نمر قائلاً:

ـ هل معقول أو مقبول هذا الذي حدث؟ أين الفندق؟ وأين الضيوف من أميركا الذين قال أبوك إنّهم ينتظروننا فيه؟ ولماذا

جاء بنا إلى هنا بعد أن سلّمناه قيادة الرحلة!؟

ـ لا أدري والله. . هناك خلل، أو سوء تفاهم، وما حدث قد حدث، فلا فائدة من الأسئلة أو الأخذ والردّ، ها هو والدي قادم إلينا. . أرجوك ألاّ تخاصمه، أو تعاتبه، فقد وقعنا جميعًا في المصيدة!

وجاء والدها تتبعه والدتها، بعد أن ناما نومًا عميقًا هانئًا، وجاء بعدهما فتى يحمل صينيّة القهوة، فترشّفوا الماء الأسود الذي في الفناجين، وقال الوالد:

ـ الحقّ على البحر وليس عليّ. . من أجلك جئنا إلى هنا. . إلى مكان مطلٍّ على البحر!

ـ هل نمت جيّدًا؟

قالت واجدة:

ـ لم ننم، لا هو ولا أنا. . الحرّ قاتل. . وغرفتي «دكّان سمانة».

ـ هذا بسبب القلق لا بسبب هذه الإطلالة التي تشرح الصدر. . ماذا تريدون؟ نأتي بالرفييرا إلى السويديّة!؟ هناك مثل فرنسي يقول. .

نهض نمر عازفًا عن سماع الأمثال، فعلّق قائد الرحلة قائلاً:

ـ سينزل نمر إلى تحت لسببين، أوّلهما بلّ ريقه قليلاً، وثانيهما لقاء «غادة الكاميليا» التي هي «خانم أفندي» صاحبة المحلّ!

قالت واجدة:

ـ وأنا سألحق به، إنّه بحاجة إلى بعض التسلية كي لا يطقّ «أو يبصق البحصة» وتنتزع الرحلة!

قال والدها:

ـ أنا لا أستطيع اللّحاق بكما.. على الرجل أن يسافر وحده.. أو يترك زوجته في بيت الطاعة..

قالت زوجته:

ـ أنا جئت لقضاء واجب.. نسيت مناسبة الذكرى الأولى لوفاة والدي، موعدها بعد يومين!؟ جاء المرحوم لزيارة أهله، دون أن يدري أنّ قبره سيكون هنا.. القدّاس، لراحة نفسه، بعد غد، أي يوم الأحد، وعلينا أن نقوم بالواجب أمام أهلنا هنا وأمام الناس، ولهذا السبب وحده جئت في هذه الرحلة..

ـ ونمر جاء لمهمّة أصعب: تحديد شجرة عائلته وتمجيدها..

ـ وواجدة ابنتنا؟

ـ جاءت من أميركا للصلاة على روح جدّها الطهور!

ـ تمزح أم تتمسخر!؟

ـ الاثنان معًا. . المرأة، كما قال بولس الرسول، تترك أهلها وتتبع زوجها. . ولم يقل للمرأة: اتركي أهلك واتبعي زوجك. . أغلب الناس لم يفهموا حكمة القدّيس بولص. . لقد استعمل الفعل المضارع، لا فعل الأمر. . والفارق بين الاثنين كبير. . . إنّه يصف حالة قائمة، حالة موضوعيّة، ولا يأمر كما هو شائع بين الجهلة من أمثال جارنا الذي كنيته «فوزو طوزو»! هل سمعت بأسخف من هذه الكنية؟ وكيف يمكن أن نترجمها إلى الفرنسيّة مثلاً. . «فوزو» مشتقّة من فوّاز أو فوزيّة، أمّا طوزو هذه. . كيف نفعل معها؟

ـ لا تفعل شيئًا. . ما هي علاقتك بالأمر!

ـ علاقتي أنّني ترجمان محلّف، هل نسيت هذا أيضًا يا أميرال الرحلة؟

ـ ٣ ـ

من الصعب على مَنْ يعرف فهيم الليث أن يزعل منه، أو حتى يعتب عليه، ففي اكتناز جسمه، وتشكّل بنيته، ونبرة صوته الآمرة، وضحكته التي لا قهقهة فيها، والتي هي أشبه بالابتسامة، ما يجذبك إليه، ويغريك بمجالسته والاستمتاع بحديثه ذي الصفتين، أولاهما الموضوعيّة، وثانيتهما الثقافة الفرنسيّة، التي تُميّزه حتى عن الفرنسيّين، بما فيها من ضلاعة في التعبير، وحكمة في روز الأمور قبل الحكم عليها!

نزل نمر وواجدة إلى الصالة، كانت عامرة بالزبائن، والخانم خديجة، صاحبتها، تجلس إلى مكتبها، تراقب كلّ شيء، وتصدر حكمها، الذي هو قول مبرم، على كلّ شيء، بينما ابنها الجميل، فارع القامة، أخضر العينين، يعدّ الطلبات بما فيها من مشروبات، تقتصر على البيرة التركيّة اللذيذة جدًّا، أو القهوة التركيّة ذائعة الصيت، وخلاف ذلك.

كان نمر يرغب في الكلام مع الخانم خديجة عن غرفته السيّئة، وعن كلّ المعاناة التي قاساها بسبب من ذلك، إلاّ أنّ الخانم لم تعطه أيّ فرصة للكلام، فقد تكلّمت، بشيء من أسى ومرارة، وبكثير من الفخر، عن زوجها المرحوم، الذي كان مناضلاً معروفًا، ويساريًّا على سنّ الرمح، فمات شهيدًا، في ظروف غامضة، تاركًا لها ابنها الوحيد «أوجودان» وقطعة الأرض الصغيرة هذه، التي حوّلتها إلى صالة، ومن ريعها بَنَتْ البيت ذي الطابق العلوي، وما فيه من غرف متفاوتة الحجم، أمامها فسحة سماويّة كبيرة مطلّة على البحر، يحلو فيها السهر والشرب في ليالي الصيف.

كان الحديث يدور باللغة التركيّة، ولم تكن واجدة تفقه كلمة ممّا يدور، لذلك اقترحت على نمر أن يذهبا في جولة ليليّة يتعرّفان فيها على السويديّة في الليل، فرحّبت الخانم، وأرسلت من يستدعي السائق عطا، الذي هو ابن السويديّة، ومن العرب الذين يعيشون فيها، فلم يمضِ ربع ساعة حتى وصل السائق عطا، وسلّم على الضيوف، مرحّبًا باقتراح الخانم في أخذ نمر وواجدة في نزهة ليليّة، يتعرّفان فيها على المدينة التي تنام باكرًا لأنّ مرابع السهر غير موجودة أصلاً في هذه المدينة الفينيقيّة، المشهورة بأنّها مصبّ نهر العاصي، القادم إليها من الأراضي السوريّة.

كان عطا مربوع القامة، لطيف المُحيّا، يتحدّث بلغة عربيّة جيّدة، عن كلّ شيء، وعن لا شيء أيضًا، كثير الأسئلة عن أصل وفصل الذين يركبون سيّارته، ومن هم، وإلى أيّ مكان يودّون الذهاب.

قال نمر صاحب:

ـ هل عائلة صاحب معروفة وكبيرة في السويديّة؟

ردّ عطا:

ـ كبيرة ومعروفة جدًّا، وفيها الكيّس وغير الكيّس، إلى من تريد أن تتعرّف فيها؟

ـ إلى الكيّسين طبعًا!

ـ إذن وصلت.. سآخذك إليهم رأسًا.. هل السيّدة..

ـ واجدة!

ـ هل السيّدة واجدة أختك أو ابنتك؟

ـ بنت أخي، أبوها فهيم اللّيث، وهو صاحب الاقتراح بأن نزور السويديّة، وقائد رحلتنا إليها!

ـ يبدو أنّه لا يعرف السويديّة، ولم يزرها من قبل.

ـ صحيح.. فكيف عرفت؟

ـ من هذا المكان الذي نزلتم فيه.

ـ ماذا نفعل إذا لم يكن في السويديّة كلّها فندق واحد؟

ـ فيها موتيلات.. وهي مريحة.. لكنّها مشغولة كلّها في هذا الصيف، ومع ذلك يمكن البحث.. لعلّ وعسى!

ـ قائد رحلتنا السيّد فهيم اللّيث، والد السيّدة واجدة، رغب أن ننزل في مكان يطلّ على البحر، فكان أن نزلنا هنا..

ـ عند الخانم خديجة؟

ـ نعم عندها.. وهي امرأة لطيفة، إلاّ أنّ غرف النوم سيّئة جدًّا.

ضرب عطا بكفّه على مقود السيّارة وقال:

ـ أنت من بيت صاحب ولا تنزل عندهم!؟

ـ نصيب.. أنا، بطبعي، أفضّل الفنادق على البيوت، ولكن هل يُعقل أنّ في السويديّة كلّها لا يوجد فندق واحد؟

ـ الإهمال يا سيّدي.. السويديّة مهملة بخلاف أنطاكية القريبة جدًّا منها!

ـ نصيب يا عم عطا نصيب.. لم نكن نعلم أنّ السويديّة، مسقط رأس أسلافنا وأجدادنا وآبائنا، مهملة بهذا الشكل، وليس فيها أيّ فندق.. مع أنّنا جئنا على أساس أنّ بعض

أصحابنا الذين سبقونا سيكونون في الفندق، وأنّ احتفالاً سيُقام فيه، وسننعم بالراحة والمسرّات. . فإذا كلام الليل يمحوه النهار كما يقول المثل.

ـ أفهم من هذا أنّ أحدًا ضحك عليكم عدم المؤاخذة؟

ـ لم يضحك علينا أحد. . ضحكنا على أنفسنا. . ومهما كان الأمر، فإنّ رؤية أقربائنا تكفينا. . أنت، يا عم عطا، عليم خبير كما يبدو. . بارك الله فيك، وحماك من شرّ حاسد إذا حسد، ومن النفّاثات في العقد. .

التفت عطا إليّ وقال:

ـ حضرتك مثقّف كما يبدو. . المهنة الكريمة؟

ـ صحافي!

ـ ولك شهرة ومكانة؟

ـ الله أعلم. .

ـ تواضع. . فهمت. . ها قد وصلنا. . سأنزل وأنده من أجد من بيت صاحب، ثم أعود إليكم. .

قال ذلك وصاح بعد أن تقدّم خطوات إلى أمام:

ـ يا بيت صاحب. . ضيوف من بيت صاحب جاؤوا إليكم من سورية!

ركض بعض الشباب إلى السيّارة وقالوا:

ـ أهلاً وسهلاً.. وصلتم.. من الأخ والأخت؟

ـ أنا نمر صاحب، وهذه بنت أخي..

صاح أحد الشابّين:

ـ نمر صاحب بذاته؟ أكاد لا أصدّق.. يا فريد.. يا فريد.

ركض فريد قائلاً:

ـ مَن.. نمر صاحب؟ نمر صاحب نفسه؟

ـ نعم هو بذاته، وقد تركت له بطاقة في مكتبه بوزارة الثقافة في دمشق.

ـ غير معقول.. يا جماعة... احزروا مَن جاء إلينا؟ نمر نفسه.. صاحب الشهرة الواسعة، والمكانة الكبيرة، نمر الذي حدّثتكم عنه!!

قام الجماعة من آل صاحب، رجالاً ونساءً، المجتمعين اللّيلة في باحة بيت سامي صاحب، في مناسبة ما، ربّما هي عيد ميلاد أحدهم، أو أحد أولادهم أو أحفادهم.

صافحهم نمر واحدًا واحدًا وهو يبتسم، نشوةً بهذه اللُّقيا غير المتوقّعة، والتي تمّت ببساطة مذهلة، ونادى السائق عطا قائلاً له:

ـ عُدْ بعد ساعة إليّ، لأعود معك إلى حيث أنزل في موتيل خديجة خانم!

احتجّ الحاضرون:

ـ هذا لا يمكن، لا يمكن أبدًا، لدينا سيّارات نحن أيضًا، لكنّك ستبقى عندنا أنت والضيفة التي معك..

ـ تقصدون العزيزة واجدة.. إنّها سيّدة من أقارب زوجتي، وهي أميركيّة، تعيش في إحدى الولايات المتّحدة الأميركيّة منذ زمن طويل، وقد جاءت مع والديها في هذه الرحلة التي تمّت على عجل، نحن ننزل في أوتيل، أو موتيل، السيّدة خديجة المُطلّ على البحر، وصلنا صباح اليوم، وكان حظًّا جميلاً أنّني التقيت بكم في المساء، مجتمعين بمناسبة لا أدري ما هي.. مناسبة سعيدة ولا شكّ..

قال فريد صاحب:

ـ المناسبة السعيدة أنّك وصلت إلينا بسهولة.. وفي اللّيلة نفسها التي دخلت فيها إلى بلدة السويديّة التي يسمّونها «سمان داغ» بالتركيّة.. مقاطعتنا اسمها «هاتاي».. ستبقى أنت والسيّدة قريبتك عندنا، فليس من المقبول، أو من الأصول، أن تنزل في أيّ مكان وبيوتنا كلّنا هي بيتك.. هل تشرب معنا كأسًا من العرق، أم تفضّل الويسكي وهي موجودة أيضًا!

ـ أشرب معكم الليلة فنجانًا من القهوة فقط. . ماذا تشربين يا عزيزتنا واجدة؟ عرق أم ويسكي!؟

ـ فنجان قهوة سادة مثل عمّي نمر. .

تعالت أصوات الرجال والنساء:

ـ نحن عرب رغم أنّنا نعيش في تركيا. . ولم ننسَ عاداتنا العربيّة في إكرام الضيف، وأنتم لستم ضيوفًا، أنتم أهلنا. . وقد سمعنا الكثير عن عمّنا نمر، وعن شهرته، وحاولنا الاتّصال به هاتفيًّا مرّات عديدة فلم نوفّق. .

قال نمر:

ـ وأنا أيضًا حاولت الاتّصال بكم هاتفيًّا فلم أوفّق. . لننسَ كلّ ذلك، المهمّ أنّنا التقينا. .

سأل سامي صاحب، وهو رجل في أواسط العمر، ويبدو عليه الوقار:

ـ أنت وُلدت في السويديّة يا عمّ نمر. .

ـ وُلدت في اللاذقيّة، لكنّني، بعد الولادة، انتقلت مع أهلي إلى السويديّة. عشت فيها ثلاثة أعوام، خرجت منها وأنا ابن ثلاث سنوات، وأعود إليها، الآن، وأنا في الثالثة والثمانين. . تأمّلوا!

قالت سيّدة:

لا يبدو عليك أنّك ابن ثلاثة وثمانين عامًا.. أنت تكبّر عمرك، تكبّره ولا ندري لماذا؟

ـ كي أحظى بعروس من عندكم..

ـ يا مرحبًا! ولكن ماذا بشأن زوجتك وما اسمها؟

ـ اسمها مريم، ونناديها مريانا، وقد تقدّمت في العمر حتى إنّها لا تستطيع السفر..

ـ مقعدة لا سمح الله؟

ـ تقريبًا!

ـ وهل لديك أولاد؟

ـ ثلاث بنات وصبي.. ابني سعد صاحب، ممثّل معروف في سورية والبلاد العربيّة.

ـ سعد ابنك؟

ـ سعد الممثّل ابنك؟

ـ إنّه ممثّل معروف عندنا.. ويحظى بإعجاب كبير.. لماذا لم يأت معك؟

ـ لديه أشغال.. إنّه يصوّر دوره في عدّة مسلسلات دفعة واحدة.. نراكم غدًا إن شاء الله..

تعالت الأصوات:

ـ لا! تبقى عندنا، مستحيل أن نفترق بعد هذا اللقاء..

قال سامي صاحب:

ـ لديّ، في هذا البيت طابق ثالث.. وهو جاهز تمامًا.. تفضّل معي أنت والسيّدة واجدة.. ظنّي أنّه سيعجبك، وسنذهب ونأتي بكم معنا هذه الليلة..

صعد نمر وواجدة إلى الطابق الثالث، راق لهما، غير أنّ واجدة قالت:

ـ أنا مع الوالد والوالدة، ونفضّل البقاء حيث نحن الليلة.. وغدًا نفكّر في الأمر..

قال نمر:

ـ أنا لي قول معروف: لا أسكن إلاّ في بيت أبي، وأبي ليس له بيت في البرّ أو البحر.. لذلك أفضّل النزول في الفنادق دائمًا!

تعالت الأصوات:

ـ تنزل في الفندق وكلّ بيوتنا بيتك! هل ترضى إذا ذهبنا إلى اللاذقيّة أن ننزل في فندق؟

ـ أنا أسكن دمشق وليس اللاذقيّة..

ـ تقصد الشام؟

ـ تمامًا . .

ـ في الشام فنادق كثيرة؟

قال فريد:

ـ فيها فنادق فخمة جدًّا، مثل الشرتون والمريديان والشرق. . أنا كنت في دمشق ورأيت الكثير. . لكن إقامتي اقتصرت على ليلة واحدة!

لاحظ نمر أنّ أهله يتكلّمون التركيّة بأسهل ممّا يتكلّمون العربيّة، ولغتهم العربيّة فيها لكنة. . أمّا أولادهم فإنّهم يفضّلون التركيّة، وليس في مقاطعة هاتاي ولو مدرسة واحدة تعلّم اللغة العربيّة، فهذا ممنوع أصولاً . .

جاء عطا، فاستأذن نمر وواجدة، عائدين إلى «موتيل» خديجة خانم، وأشياء كثيرة تعتمل في نفس نمر، وخيبة كبيرة تقرض قلبه، لأنّ الكلام الذي سمعه من صديقه وقريبه فهيم اللّيث لم يكن في موضعه، فلا فندق، ولا احتفال، ولا إقامة ملائمة، وعليه أن ينام الليلة شبه عارٍ، لأنّه لم يفتح حقيبته ولن يفتحها!

في اليوم التالي انتقلوا جميعًا إلى بيت سامي صاحب، حيث تكدّست الأكياس بما فيها، وسأل فهيم اللّيث صديقه نمر عماذا

يريد من هذه الأغراض كهدايا يوزّعها على أقربائه، فشكره قائلاً:

ـ لا أفكّر، في الوقت الحاضر، بتقديم أيّ هديّ لأيّ من أقربائي، وسيأتي السائق عطا بعد قليل، ليأخذني بسيّارته إلى أنطاكيا!

قالت واجدة:

ـ هذا أحسن ما تفعله يا عمّي العزيز.. وآمل أن تنزل في فندق مريح، بعد كلّ ما عانيت هنا، ونحن ننتظر هاتفًا منك، لنلحق بك إلى أنطاكيا وننزل في الفندق نفسه.

قال سامي صاحب، وكان شهمًا مضيافًا:

ـ كنّا نفضّل أن تبقى في السويديّة، وتلتقي بالأقرباء الذين يقدّرونك ويحبّونك..

ـ أنا شاكر، يا ابن العمّ، كرم ضيافتك، لكنّني، بعد الراحة في أنطاكيا، سأعود إليكم، وألتقي الأقرباء جميعًا في بيتك هذا، إقامتي طويلة نسبيًّا، فأنا، كما تعلم، صحافي، غير مرتبط بزمن محدّد، ولا التزام لي بأيّ مكان.. إنّني مسافر دائم، بحقيبة ودون حقيبة، أكتب في أيّ وقت، ولا أكتب في أيّ وقت، فالكتابة مزاج، ومزاجي يختلف عن أمزجة الآخرين، وأرجوكم ألاّ تعتبوا، وأن تراعوا، كرمى للقربى، مزاجيّتي اللعينة..

قال سامي صاحب:

ـ أنا أقدّر هذا، وزوجتي خرّيجة الحقوق، تقدّره أيضًا، قالت لي أمس، في أوّل لقاء بيننا، يا سامي: هل رأيت وجه نمر؟ وماذا لفتك فيه؟ أجبتها: غرابته! وغير ذلك؟ قلقه! وغير القلق؟ بعض الحزن في عينيه، عندما لا يتكلّم! أجابتني: هذا صحيح، في عينيه حزن، وفيهما نوع من بريق غريب!

قلت ضاحكًا: بريق جنون..

صاحت: لم أقصد هذا والله..

ـ اقصديه إذن، فأنا نصف عاقل ونصف مجنون!

ـ وجنونك هذا هو الذي يدفعك لمغادرتنا، والسفر إلى أنطاكيا؟

ـ ربّما، ربّما!

ـ صديقك وقريبك فهيم لا يتصرّف مثلك!

ـ لأنّه عاقل وأنا مجنون.. الرحلة معه ممتعة.. إلاّ أنّه جاء مع زوجته لقضاء واجب الصلاة عن روح والد هذه الزوجة، أمّا أنا فجئت لرؤيتكم، ولا واجبات لديّ.. ولا علاقة لي بالكنائس والصلوات لراحة نفوس الأموات.. هذه هي المفارقة! ثم أنا على دين جبران خليل جبران الذي قال: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم!» لكنّني أخالفه في ذلك، فنحن أحياء لا

أموات، والأحياء المجانين من أمثالي يحبّون السفر، لأنّهم مع المغامرات على موعد دائمًا!

ـ لذلك لم تفتح حقيبة سفرك!

ـ صحيح. . وقد لا أفتحها في أنطاكيا نفسها، إذا لم تعجبني أنطاكيا!

ـ أين تفتحها إذن؟

ـ في الشام مثلاً، عندما أعود إلى بيتي!

قالت فتاة من العائلة:

ـ هذا طريف والله. .

ردّت إحدى القريبات:

ـ وما وجه الطرافة فيه؟ يأتي إلينا ليكون بيننا، فإذا به يغادرنا دون أن يرانا. . يبدو أنّنا لسنا على قدر المقام!

قالت ذلك بالتركيّة، فردّ نمر بالتركيّة أيضًا:

ـ هذا كلام مردود سيّدتي. . نمر إنسان شهير، لكنّه بسيط متواضع. . جئت لأنزل في فندق، فنزلت في كراج لسوء الحظّ.

ـ فعلت ذلك لأنّ بيوتنا لم تعجبك. . لا قصور عندنا!

ـ وأنا لا أبحث عن أيّ قصر. . لكنّني لا أرتاح للنوم في

الكاراجات. . هذه هي المسألة. . وتوبيخك هذا مردود. . أنا هو رأس عائلة صاحب من حيث العمر على الأقلّ. .

قالت السيّدة:

ـ أرجوك، لم أقصد أيّ شيء. .

نظر إليها نمر نظرة انزعاج وقال:

ـ بلى! قصدتِ أشياء كثيرة. . لا أحد يرفع أنفه على نمر صاحب. . ليكن هذا مفهومًا من الجميع. . قلت لكم إنّني نمت في كراج، وفي الحقيقة لم أنم أبدًا. . ولست ملزمًا بتقديم تقرير لأحد عمّا أصابني! أنا أحبّكم جميعًا، لأنّني جئت لأجلكم جميعًا. . وسأعود إليكم. . هذا وعد منّي، ونمر صاحب إذا وعد وفى. . لن أقبّلكم، سأعود إليكم، وأعتذر إذا لم أكن ديبلوماسيًّا في كلامي. .

تكهرب الجوّ. . حاول الصديق فهيم اللّيث تلطيف هذا الجوّ المكهرب فقال:

ـ أنا المسؤول عمّا حدث!

قال نمر:

ـ لا لست مسؤولاً عن شيء. . الحظّ وحده هو المسؤول. . لو كان هناك فندق لكان كلّ شيء على أحسن ما يرام. . أنا مسافر وأنت باق، حاول، أرجوك، أن توضح موقفي، أن تعتذر

نيابة عنّي، وباسمي، إذا ما كنت غير لبق في الكلام مع أيّ من الأقرباء، ومع السيّدة قريبتي. . شكرًا وإلى اللقاء بعد يومٍ أو يومين.

في السيّارة، بين السويديّة وأنطاكيا، قال عطا:

ـ منذ ركبت معي البارحة، قلت لك في عائلة الصاحب الكيّسون وغير الكيّسين، وأنت رأيت الطرفين، هذه المرأة، تحت ستار العتب لأنّك لم تبق في السويديّة، رغبت في أن تقول ضمنًا «مَن أنت يا نمر صاحب حتى تتشوّف علينا؟». وأنت أجبتها بقسوة، رددت عليها بما يجب، سليطة اللسان هذه المرأة!

ـ ما كنت أرغب في الردّ عليها، لولا أنّها تمادت. . رفضتُ أن أشرح لها وضعي، أن أقول لها إنّني لم أنم ليلة أمس، وإنّني لم أفتح حقيبتي، وتكاد ثيابي الداخليّة تقطر عرقًا، وإنّها تلتصق بجسمي، اكتفيت بالقول: لو كان في السويديّة فندق لما غادرتها إلى أنطاكيا. . كم المسافة بين السويديّة وأنطاكيا؟

ـ شلفة حجر. . نصف ساعة وتكون في أنطاكيا، في أيّ فندق تريد الإقامة؟

ـ أنا لا أعرف أنطاكيا ولا فنادقها. . خذني إلى أفضل فندق فيها. .

ـ هناك فندق جديد، بعيد قليلاً عن مركز المدينة، وهو على الطراز الحديث.. مودرن في كلّ شيء..

ـ سنرى.. خذني إليه أوّلاً.. خبرتي بالفنادق ممتازة.. أنا نزيل فنادق أوّلاً وأخيرًا..

ـ هل تكره الإقامة في البيوت؟

ـ لا أكرهها، لكنّني لا أجد راحتي فيها غالبًا.. أليس غريبًا ألاّ يكون في السويديّة كلّها فندق واحد!؟ صالة خديجة خانم جيّدة، لكن غرف النوم ضيّقة، ومن سوء الحظّ أنّهم أعطوني أصغر غرفة وأحقرها، ولولا الصبي عليّ، الخادم في الصالة والغرف، لكنت في وضع أسوأ بكثير..

ـ لهذا كافأت هذا الصبي بهذه الكمِّيَّة من الدولارات..

ـ إنّه يستحقّ أكثر.. وقد أوصيت خديجة خانم به خيرًا فقالت: على العين والرأس، سأهتمّ بعليّ هذا وأزيد أجرته..

قال عطا:

ـ خديجة خانم إذا وعدت وفت.. كانت، كما يبدو، تودّ أن تبقى عندها!

ـ لو كنت مرتاحًا، والغرفة واسعة، لبقيت.. إنّها سيّدة لطيفة، أحبّتك بسرعة.. هي أرمل على كلّ حال..

ـ عرفت ذلك منها، قصّت عليّ حكاية زوجها.. شربت عندها ومعها كمِّيَّة كبيرة من البيرة.. وابنها كان لطيفًا، بشوشًا، جميلاً، قدّم لنا أفخم وجبة سمك.. هل هذه أنطاكيا؟

قال عطا:

ـ أنطاكيا بعينها.. لكنّ الفندق خارجها، وهو بعيد قليلاً!

ـ لا بأس أن نقصده، وأن نرى إذا ما كان ملائمًا!

لكنّ الفندق، الذي هو على الطراز الأميركي، خارج المدينة، لم يرق لنمر، الذي دخله واطّلع على كلّ مرافقه، فقال لعطا:

ـ أرجوك! خذني إلى فندق في وسط المدينة.. يكون ملائمًا.

ـ هناك فندق أنطاكيا الكبير.. إنّه بخمسة نجوم.. وخدماته جيّدة!

ـ سنرى..

ـ تفضّل إذًا.. هذا هو فندق أنطاكيا الكبير، وفي قلب المدينة..

دخل نمر باحة الفندق الواسعة، المضاءة، المنعشة، وبعد أن تجوّل قليلاً، توجّه إلى منصّة الاستقبال، سائلاً عمّا إذا كان

هناك جناح «سويت» لائق، وبسعر مناسب قائلاً:

ـ إنّني من سورية وهذه أوّل زيارة لي إلى تركيا، أو إلى منطقة هاتاي.

قال المسؤول في الاستقبال:

ـ أهلاً وسهلاً.. هل تتكلّم التركيّة؟

ـ قليلاً.. يمكن أن نتفاهم بالفرنسيّة مثلاً.

ـ لا بأس، هناك جناح في الطابق الرابع، يطلّ على الشارع الرئيسي في المدينة، أجره في اليوم ١٤٠ دولاراً! هل ترغب في رؤيته؟

ـ طبعًا، وفي الإقامة فيه إذا كان مناسبًا..

قال السائق عطا، وهم في المصعد مع النادل:

ـ عرّفتهم من أنت... اهتمّوا بالأمر.. آمل أن يكون الجناح ملائمًا..

وكان ملائمًا فعلاً، وفيه التجهيزات المطلوبة.. فعاد إلى منصّة الاستقبال يعلن موافقته، ويسأل ما إذا كان في الفندق قسم لوضع الأمانات، فجاء المكلّف بهذا الأمر، وتسلّم النقود من دولارات وغيرها. وبعد إعطاء الوصل اللازم، صعد نمر إلى جناحه، يرافقه عطا الذي قبض ما طلب من أجر، مع رجاء من نمر، في أن يعود عطا إليه في اليوم التالي، ليكون سائقه شبه الرسمي..

بعد ذلك خلا نمر صاحب بنفسه، طلب فنجانًا من القهوة التركيّة المغليّة جيّدًا مع الماء البارد، ولمّا جاء الطلب، وتذوّق القهوة قال في نفسه: «الحمد لله ثلاثًا» وبعد أن استحمّ، وتمدّد على السرير العريض، فكّر: كيف ستكون إقامتي هنا؟ وهل تروق لي أنطاكيا، بعد أن راق لي هذا الجناح في هذا الفندق؟ أرجو ذلك.. وسأعود، غدًا أو بعده إلى أقربائي وصديقي فهيم اللّيث في السويديّة..

لكنّه لم يعد.. كانت ثمّة مفاجأة غير متوقّعة بانتظاره في الليلة الأولى لوصوله، ولكم تركت هذه الليلة من أثر في نفسه، ومن ذيول غريبة في حياته!

ـ ٤ ـ

تعب، تعب. راحة بعد تعب. ماء فاتر، كثير من الماء الفاتر، كثير، كثير، على الرأس، الكتفين، الجسم، كلّ الجسم، من أمام، من وراء، على الصدر، الظهر، الحوض، الفخذين، القدمين، الرأس، عود على بدء. ماء، ماء، ثم ماء، صابون، ليفة من إسفنج، ناعمة ليفة الإسفنج، ملساء ليفة الإسفنج، صابون، رغاء الصابون، لا للشامبو، ملعون الشامبو، ملعون تعرّق الجسم، ملعونة الثياب التي تبلّلت بتعرّق الجسم، ملعون الدوش، فوهة الدوش، شحّ ماء الدوش، المزيد، المزيد، أقوى، يا ربّ، يا ربّي، أعبدك يا ربّي، مع النظافة أعبدك، أكثر أعبدك، أكثر أباركك، أكثر أحبّك، مع النظافة أحبّك، ومن خلالها أراك، في عليائك أراك، أسجد أمامك، ومن خلال شلاّل الماء، فاترًا، باردًا أراك، وأحمدك ثلاثًا!

أقفل نمر صنبور الماء، شبع من الماء، أزاح شعره عن عينيه، مسح الماء عن عينيه، فتحهما قليلاً، ثم قليلاً، رأى ما حوله، البانيو، المنشفة على الأرض، قرب البانيو، بُرْنس الحمّام، منشفة الرأس، المداس البلاستيكي الرقيق الأبيض، المغسلة، العطور على المغلسة، الباب، البخار على الباب، على المرآة، على جدران الحمّام، على كلّ ما في الحمّام، يا له من حمّام، ويا للسعادة بعد الحمّام، يا للوحدة، حين الجناح له وحده، وحين الوحدة ملكه، وعندما يستطيع، عاريًا، كاسيًا، أن يتمدّد على الأريكة، على التخت، خارج التخت، على الكرسي، قرب الثلاّجة الصغيرة، وفيها ما يريد، وما لا يريد، فيها شراب البرتقال، وفيها شراب التفّاح، لكن ليس فيها سفن آب، وهو، نمر، كان يرغب بعلبة مثلوجة من السفن آب! وهذه، في أنطاكيا، أو في فندقها الكبير، أو في ثلاّجة هذا الفندق الكبير، غير موجودة مع الأسف!

أغفى نمر بعد الحمّام، وهو في برنس الحمّام، وطاقيّة البرنس على رأسه وعندما استيقظ، بعد ساعة، ساعتين، لا يدري، كان جسمه، داخل البرنس، قد نشف أو كاد، وكانت منشفة قربه، على التخت، فتدبّر أمره، ثم نسل، من على وجه حقيبته، معطف البيت، وكان رقيقًا، مريحًا، فارتداه، ورفع سمّاعة الهاتف، طالبًا قهوته المعتادة!

«يا فؤادي لا تسل أين الهوى/ كان صرحًا من خيال فهوى»
كانت السويديّة، وما في السويديّة، وما لاقاه فيها، وما أصابه من عنت فيها، ومن رأى، ومن لم ير، وما شاهد، وما كابد، صرحًا من خيال، بل كان خيالاً من خيال، والآن لا خيال ولا من يتخيّل، ففي عقيدة نمر أنّه لا فائدة من تذكّر الأشياء السيّئة، وأنّه لا بدّ من النسيان، وأنّ للنسيان مدرسة، هو، نمر، في الصفّ الأوّل فيها، يتعلّم أن ينسى، ويتكبّد عناءً غير قليل، في سبيل هذا النسيان، دون أن يبلغ ما يريد من شأوٍ فيه.

جاءت القهوة ومعها الماء البارد، ومع القهوة، بعد رشفة أو اثنتين منها، كان الكونياك، من نوع ميتاكسا اليوناني، في زجاجة دمشقيّة، جميلة، فاخرة، هي هديّة فهيم اللّيث له، قبل سفرهم من اللاذقيّة إلى السويديّة، وسيأتي فهيم، مع عائلته إلى أنطاكيا، بعد الصلاة التذكاريّة وإقامة القدّاس لراحة نفس والد زوجته، الذي جاء إلى السويديّة، وهو منها، لزيارة الأهل الذين آثروا البقاء فيها، فوافته المنيّة، ليرتاح في قبر، إلى جانب قبور الذين أحبّهم، أحياءً وأمواتًا.

خرج نمر إلى الشرفة، أطلّ من الطابق الرابع، على الشارع الرئيس في المدينة، الذي يعجّ بالناس، بين غادين ورائحين، وكان الشارع عريضًا، مستقيمًا، تدبّ فيه حركة غير عاديّة، لإقامة الزينات احتفالاً بعيد النصر التركي.

الحظّ يبتسم، أحيانًا، جملة واحدة، وعلى صاحب هذا الحظّ أن يتذوّقه مفردًا: الحمّام، الإغفاءة بعده، القهوة، الكونياك، الشرفة، الشارع، الزينات، الناس، الوحدة، الذكريات والحقيبة الكبيرة، حقيبة السفر التي لم تُفتح في السويديّة، فهل تُفتح، تُرى، في أنطاكيا!؟

نمر صاحب غير إيليّا أبو ماضي، هذا الأخير صاحب قصيدة «لَستُ أدري!» الشهيرة، ونمر صاحب، ليس من عشّاق اللاّأدْرِيات، لكنّه يعيشها، أحيانًا، في سفره الدائم، في تنقّله بين البلدان، فقد تغدّى في معامل تويوتا في اليابان، وتعشّى في مكسيكو العاصمة، خلال شهر واحد أو يزيد، وخلال هذه التنقّلات، كان يواجه مشكلة هي لا مشكلة، أو مشكلة سخيفة، مضحكة، تتمظْهر في الألم الشديد، الذي يعانيه بسبب نتوءات عظْمِيّة في ظهره، ويعالجه بالمسكّنات، حَذَرًا من أيّ جراحة تجعله في المقعدين، كما أجمع أطبّاء العظام، في أكثر العواصم التي زارها، لذلك كان غير قادر على فتح حقيبة سفره، فإذا فتحها عجز عن إخراج ثيابه منها، وتعليقها في الخزائن، أو تعريضها للهواء والشمس..

هكذا يأتي الحظّ جملة، وينتفع به مفردًا، ويأتي سوء الحظّ جملةً، ليعالج مفردًا، وقد لازم سوء الحظّ هذا نمر صاحب، منذ خروجه من اللاذقيّة وسفره إلى السويديّة، إلى أن وصلها

وأقام في موتيل الخانم خديجة، ثم زيارة أهله، ورفضه الإقامة عندهم، وأسفه الشديد لأنّ السويديّة، بطولها وعرضها، لا فندق فيها، خلافًا لما قاله صديقه فهيم، وما أكّده بشكل جازم، وزيّنه بأقوال مغرية، لا أثر لها على أرض الواقع.

لقد غامر، وهذا من طبيعة الأشياء لديه، لأنّه مع المغامرة على موعد، دائمًا، وكان، في بدء الرحلة، يحسب أنّ واجدة، قريبته وابنة صديقه، ستساعده في فتح حقيبته، وتعليق ما فيها، ما إن يصلون إلى الفندق في السويديّة، إلاّ أنّ الرياح جرت بما لا يشتهي نمر، ووفقًا لما اعتاده، عالج المصاعب التي واجهته جملة، بشكل منفرد، وها هو في أنطاكيا، في جناح في الطابق الرابع، وقد استحمّ، استراح، تناول القهوة، خرج إلى الشرفة، عاد إلى الداخل، طلب القهوة ثانية، تناولها مع كونياك METAXA (ميتاكسا) اليوناني، ولم يبق عليه سوى فتح الحقيبة، وهذه لا تُفتح، وما ضرّ إذا لم تفتح، فقد أَلِفَ ذلك، ولطالما نزل في فنادق، ولطالما لم يفتح حقائبه في هذه الفنادق! جنون! ولكن ما همّ، فنمر لا ينكر جنونه، ولا يتأذّى منه!

«أيّها الساقي أدرْ كأسًا وناولها» رحم الله سعدي الشيرازي، ورحم الله أبا الطيّب المتنبّي «إذا طلبتُ كميتَ اللون صافيةً/ وجدتها وحبيبُ النفس مفقودُ» ونمر في الثالثة والثمانين من

عمره «ودّع هواك ودّع» فما من ساقٍ، وما من حبيب، وما أبعد نجد، وما أروع عرار نجد «تمتّع من شميم عرار نجد/ فما بعد العشيّة من عرار» هنا، في أنطاكيا، لا نجد، ولا عرار نجد، ولا شميم عرار نجد. أنت يا نمر، قال في نفسه، وحيد وحيد، أنت والكأس، أنت والظلام، وفي الظلام حديث ولا كلام، وثمّة أشياء ثلاثة، تتحدّث دون أن تتحدّث، الكأس والنار والمرأة، وهنا، في هذا الفندق الرائع، وفي هذا الجناح الباذخ، لا امرأة، لا موقد ولا نار، الكأس فقط، والحديث مع الكأس، في الوحدة والظلام، بعضه للنشوة، وبعضه للذكرى، وبعضه للسكر، ومع السكر يكون النسيان، ويكون، أيضًا، التذكّر. أنت يا نمر، مع لعنة الصحو، ومع لعنة الذكرى، ومع لعنة جفاف القلب، والدك كان أسعد منك، كان يسكر من كأس، ومع السكر يضحك، يغنّي، يحبّ. كان، رحمه الله، رخوًا أمام الكأس والمرأة، ولم ينتفع بالكأس أو المرأة، لم يحصل عليهما، لكنّه، في سكره ينسى، وهذه، بالنسبة إليه، إحدى النعميات. إنّه يسكر، ويندم لأنّه يسكر، وهكذا يعيش السكر مرّتين، وفي الصحو كان يتحدّث حديث قاصٍّ بارع، ويومًا قال لك هذه الحكمة: «الدهر دولاب، لا عمّك ولا خالك» وليت الناس، أكثر الناس، يعرفون هذه الحكمة، وبها يعتبرون!

الليل لا يزال في أوّله، نمر يشرب، يحاول أن يشرب، إلاّ

أنّ جسمه، بعد كأسين أو ثلاث، يمجّ الشراب، يرفضه. إنّه لا يسكر، لا يحبّ، وقوله معروف: «أنا لا أعرف السكر ولا الحبّ، وتعيس لأنّي محروم من السكر والحبّ!» وقد اختلف قرّاؤه حول هذا الموضوع، أنكر بعضهم، لم يصدّق البعض الآخر، قال آخرون: «كلّ هذه الكتابة دون حبّ؟ هذا مستحيل، هذه لعبة ذكاء، هذه من الغرابة، من الشذوذ لاجتلاب الشهرة في الغرابة والشذوذ». وردّ ناقد معروف: «نمر لا تنقصه الشهرة» أيّده آخر: «ولا ينقصه المال!» ولاحظ ثالث: «هذا من الجنون!» ونمر يسمع، يبتسم، لا يردّ، لا يعلّق، لا يأخذ، لا يعطي، يقول: «أنا إنسان بسيط، كنت، في طفولتي، في فقر أسود، وأنا، الآن، في فقر أبيض!» وقد اعتبر بعض القرّاء، مقولة الفقر الأسود والفقر الأبيض، أحد ابتكارات خيال خصب، فذلكة من بعض الفذلكات، مردّها إلى التميّز. نمر يدأب، يسعى ليل نهار إلى هذا التميّز، وقد حقّق منه ما يريد، لكنّه لا يكتفي بما حقّق، يطمح إلى المزيد، إنّه معتدّ، يطلب، لقاء ما يكتب، ما يريد، ويُصرّ على أخذ ما يطلب، ما يريد، مع أنّه في المستوى مثل سواه، بل أقلّ من سواه. إنّه حكّاء لا مُبدع، غير أنّ الحظّ خدمه، واستغلّ هو هذا الحظّ، فصار مشهورًا، واحتمى بشهرته فاجترأ على غيره، على الجنس، على الفساد، مع أنّ هذا الغرور هو الفساد بعينه، وهو، فوق هذا، يقدّر نفسه بأكثر ممّا يسوى، وما تواضعه إلاّ غرور كاذب!

كلّ هذا كان يُقال، تارة سرًّا، وطورًا علنًا، وأبو الهول هو أبو الهول، يؤثر الصمت، يلوذ به، يعيشه حياةً، يحياه هناءة، يغنمه وقتًا للعمل، وسانحة للراحة، وفرصة للقراءة، وأخرى لاستقبال هذا أو ذاك من الضيوف والمريدين.

توقّف عن الشرب، وكعادته، أفرغ ما تبقّى في الكأس، في أقرب مغسلة، عاد إلى الاستلقاء، إلى التفكير، لاعنًا الفكر والتفكير: «اسجدي لله يا نفسي فقد وافى المغيب/ واستريحي من عناء الفكر فالفكر رهيب» إنّما الفكر الرهيب ظلّ فكرًا رهيبًا، وعبثًا حاول، ككلّ مرّة، إيقاف هذا الفكر والتفكير، لكنّه، فجأة، تذكّر رئيفة وجدان، المرأة التي التقاها على الحدود التركيّة، ورقم الهاتف الذي أعطته إيّاه، دون أن يطلبه منها، جرّاء، أو جزاء، ما قدّم لها من خدمة بسيطة، أنقذتها من إشكال كبير.

لم يكن نمر نزّاعًا، وقد تقدّم به العمر، إلى ميل نحو أيّ امرأة. كان من مألوف شيمته، حتى في استواء رجولته، أن يترك للآخر حرِّيَّة التقدّم نحوه خطوة، كي يجاريه بمثلها، أمّا المرأة فإنّه كان مشغولاً بما لديه من وجائب النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي، وضدّ الإقطاع، وفي مجابهة الظلم في كلّ منازعه، والتمرّس السياسي من خلال المهامّ التي كُلّف بها وهو في السادسة عشرة من عمره بعد، ومن أبرز، وأخطر هذه المهامّ،

قيادة منظّمة الحزب في كَسَب، في بداية الحرب العالميّة، وإبان حكم الجنرال دانتز التابع لحكومة فيشي، والذي كان عدوًّا أزرق الناب ضدّ الشيوعيّة وأصدقاء الاتّحاد السوڤياتي.

ولأنّ الوحدة، في فندق أنطاكيا الكبير، قد أضجرته جدًّا، فقد رفّ طيف لرئيفة وجدان في خاطره، وراح، خلال بعض الوقت، يفكّر فيها، دون أن يستقرّ على رأي، بسبب من أنّه ملول، وأنّ الثرثرة، بكلّ صنوفها، تبعث على الغثيان، إذا لم يكن هناك من موضوع، له قول يحمل بعض المتعة، وبعض الفائدة.

جرّب استذكار ملامحها، الغُنّةَ في صوتها، اللفتةَ في حديثها، الوسامةَ في وجهها، لون بشرتِها، عنقها، ما هو مكشوف من صدرها بارز العظام في أعلى هذا الصدر، فلم يوفّق إلاّ قليلاً، لذلك مال إلى نسيانها، وتفضيل الخروج إلى الشرفة، لتنسّم النسمات الرهوة مع تقدّم الليل، وخفوت الضجّة في الشارع.

خرج إلى الشرفة، عاد إلى الداخل، تجوّل في أقسام الجناح، فتح الثلاّجة، عاين ما فيها، عاد إلى التمدّد على الخوان الطويل، مقابل غرفة النوم، إلاّ أنّ طيف رئيفة وجدان اعتاده، فبحث في جيوب سترته، ودون عناء عثر على رقم الهاتف، فنظر إليه متفرّسًا، متسائلاً: أهتف أم لا؟ لا! لن

أهتف! أعاد رقم الهاتف إلى جيبه، أخرجه بعد قليل، وضعه أمامه على طاولة زجاجيّة السطح، ابتسم لخراقته، استغرب تردّده، استنكر حيرته، ألفى نفسه حيال موضوع تافه في ذاته، مربك في تفاهته، قال في نفسه: «ألستَ، أيّها العجوز، أنت القائل: «أنا مع المغامرة على موعد دائم!؟» أجاب على نفسه بنفسه «ولكن هل هذه مغامرة!؟» ذهب، جاء، جلس، وقف، تجوّل، عاد، كرّة أخرى، يرى إلى العنوان.. ابتسم! أسرّ: «لنفترض أنّها مغامرة لا تستحقّ التغامر، ولكن لماذا الحكم قبل التجربة؟ كلّ فكرة جيّدة جديرة بالتطبيق، وبعده يبدو حُسنها من قُبحها، إذًا لماذا لا تكون هذه الفكرة مثل غيرها!؟ ولماذا لا نطبّقها، وعندئذ نحكم عليها؟».

كان نمر قد قرّر، في سريرته، أن يهتف إلى السيّدة رئيفة وجدان، وكلّ هذه الحيرة كانت مصطنعة، غير مبرّرة، إنّها ضحك على الذّات، إرضاء لغرورٍ، تمسّك فاضح بكبرياء رجولة غاربة، وفي المآل: خوف من تجربة! «لماذا تريدون إدخالي في التجربة» صاح السيّد المسيح في وجه الفرّيسيّين الذين قالوا له «إذا كنت ابن الله حقًّا، فألْقِ بنفسك من فوق الهيكل!» نمر، بكلّ بساطة، خاف التجربة قبل أن تكون التجربة، لا يريد إلقاء نفسه من فوق الهيكل، ولكن من ذا الذي زعم أنّ هناك هيكلاً، أو هناك تجربة؟ البصيرُ البصيرُ، ينقاد كالضريرِ الضريرِ أمام الأنثى، أمام «الأفعى التي طالما سمعنا فحيحها في سرير!»

ولكن مهلاً، فقد لا تكون ثمّة أنثى، ولا سرير، ولا فحيح في سرير، ولا أفعى أو تفّاحة مباركة، تُغري هذه الأفعى حوّاء بأكلها. . ما أعجل الإنسان، وما أغباه، عندما يشمّر ثيابه قبل وصوله إلى النهر! وكان هذا الغبي هو نمر صاحب بذاته، فقد شمّر ثيابه، ليس قبل الوصول إلى النهر، بل قبل معرفة ما إذا كان هناك نهر أصلاً، ذلك أنّ العقل مرن، يبرّر كلّ شيء، حتى الجريمة نفسها، وسلام على أبي العلاء المعرّي، وعلى حصيره، وكوز الماء الذي كان يرفده، وعلى فكره ورفوف كتبه، فقد جزم، بشكل باتّ تمامًا «أن لا إمام سوى العقل» والعقل ليس إمامًا، ما دام كلّ المجرمين لهم عقول، هي «راجحة غالبًا، ومع ذلك لا تهديهم إلى ما فيه صلاحهم، أو خيرهم، أو كفّ أذاهم عن الناس».

نمر كغيره، بشر من البشر، هو أنا وأنت، وهو الآخر والأخرى والآخرون، إنّه مراوغ، كلّنا مراوغون، كلّنا نُضمر غير ما نُعلن، كلّنا، في سرائرنا، نلوذ بالعقل، كلّ ما نعمله مردّه إلى العقل، والعقل، في نشدان الراحة، هو الراحة، لكنّها راحة واهمة، كاذبة، لأنّنا، في هذه الحالة أو تلك، في هذا الموقف أو ذاك، نكون قد قرّرنا، ونجزم، في دواخلنا، أنّنا لم نقرّر بعد، وأنّنا لا نزال في مرحلة التفكير: نُقدم أم نتراجع؟ وهكذا نضحك على أنفسنا، أو تضحك أنفسنا علينا!

اللعبة العقليّة انتهت، وفي الأصل لم تكن، نهض نمر وفي يده رقم الهاتف، أدار قرص الهاتف وانتظر، لا جواب! رنين.. طال الرنين، أغلق الهاتف، قال: ربّما أخطأت في طلب الرقم، أعاد الطلب، عاد الرنين، طال الرنين، يئس من الرنين، وضع السمّاعة نزقًا، «هذه العاهرة خدعتني، أعطتني رقمًا مغلوطًا، رقمًا وهميًّا، رقمًا كاذبًا، بنت الكلب هذه لعبت عليّ، استغلّتني بشكل بشع، فاضح.. إنّها امرأة، وماذا ترتجي من امرأة، أخلاقها في خدمة مآربها، في خدمة تجارتها، في تمرير الممنوعات التي كانت معها، وبعد أن تمّ لها ما تريد، قالت لي: يا أهبل، سلامًا!».

السكر نعمة، نمر محروم من هذه النعمة.. الحبّ منحة سماء، نمر محروم من هذه المنحة، عيبه أنّه لا يسكر، لا يحبّ، واحتار مَن حوله في أمر سكره أو حبّه، هتف له أحد الأصدقاء من اللاذقيّة مازحًا: «يا أخي حبّ وخلّصنا!» وكتب له آخر «هذا زمان غشومُ، الحبّ فيه عيب وشومُ». وضع كلمة حبّ مكان كلمة صدق، الصدق، لا الحبّ، عيب وشوم، إلاّ أنّ المسألة، الليلة، ليست في السكر أو الحبّ أو الصدق أو الكذب، إنّها، ببساطة، في استهبال امرأة عاديّة، بصحافي لامع، ذائع الصيت، كان عليه أن يحترم تقدّمه في العمر، فلا ينخدع على هذا النحو المتسرّع، بسبب من ملاحة وجه امرأة، تعرّف عليها، أو تعرّفت عليه، في لحظة لقاء عابر!

عاد نمر إلى الشراب، أملاً في بلسمة ما اعتبره جرحًا لكرامته، إلاّ أنّ الشراب، من أيّ نوع كان، ليس مطواعًا على النحو الذي نريد، في الوقت الذي نريد، إنّه يمتنع، يتأبّى، هذا العرص، في الوقت الحرج، إنّ له، أي للشراب، قانونه هو الآخر، أن يكونَ للكيف، وفي الكيفِ، ومع الصحب، حين السكب و«حبيب القلب موجود» حين المرأة، «تسقيك من يدها خمرًا، ومن فمها خمرًا» فما للسكر من بدّ، وما للنعمى، في جحيم من القُبَل، إلاّ الاحتراق في النار التي أشعلوها حول الحبيبين، فإذا هي بردٌ وسلامٌ.

من يلعب البوكر بحنكة محترف، يتوقّف عن اللعب إذا ما عاكس الحظّ، مقولة تعويض الخسارة فيها المزيد من الخسارة، فاللاعب الخاسر يتأزّم، وهذا يتبدّى في ملامحه، والخصم في اللّعب، يرى هذا التأزّم، يدرك منه قوّة الورقة أو ضعفها، من الملامح المتأزّمة في وجه خصمه، لذلك يكسب ويكسب، والمتأزّم يخسر ويخسر..

نمر، بعد فشله، لم يستطع نزع الرنين الخائب من أذنه، صار متأزّمًا، والتأزّم في الشرب، مثل التأزّم في لعبة البوكر، لا سبيل معه إلى النسيان، لذلك نهض وارتدى ما تيسّر من ثيابه، مزمعًا الخروج، طلبًا للتسلّي، أو للتسرّي، أو النأي بذاكرته عن خيبة الرنين في الهاتف الذي أعاده مرّة ومرّة، دون أيّما جواب، من الطرف الآخر.

«لا تقل شئنا فإنّ الحظّ شاء» وتجلّى هذا الحظّ في رنين الهاتف في جناحه، وهو يفتح الباب ليخرج، فتوقّف لحظة، متردّدًا في العودة إلى الداخل، لعلمه أنّ بعض النُدُل، أو النادل المكلّف بخدمة جناحه، سيسأله ماذا يريد من طعام للعشاء، قبل أن يتوقّف مطعم الفندق عن تقديم الوجبات.

تردّد نمر هنيهة أو اثنتين، بعد ذلك أغلق الباب، غير آبه بالهاتف ومن هو الذي هتف، فقد ملّ كلّ هذا، ولم يعد راغبًا في تناول أيّ قطرة أخرى من الكونياك، وغير مهتمّ بالحقيبة الكبيرة التي فتح غطاءها فقط، المهمّ لديه أنّه نَسَلَ، من بين محتويات هذه الحقيبة، ثيابًا داخليّة كانت ضروريّة له بعد الاستحمام، وفي الاستحمام انتقم من الوساخة، تخلّص من ثيابه التي تبلّلت بتعرّقه، التصقت بجسمه، صار جسمه وثيابه كلاً واحدًا، وفي شهر آب اللهّاب هذا، على المرء أن يبدّل ثيابه الداخليّة كلّما تعرّق، لكنّه، في السويديّة، لم يبدّل هذه الثياب، تحمّل، من جرّائها، فوق ما اعتاد أن يتحمّل. الخطأ يستتبع الخطأ، الرحلة كلّها خطأ في خطأ، الأخطاء تتطلّب أثمانها، نمر دفع، صاغِرًا، ثمن كلّ هذه الأخطاء، دون أن يتشكّى، أن يتذمّر، أن يُعاتب، العتب مادَّة محذوفة في قاموسه، ثم ما الفائدة؟ فقد كانت الأمور سيّئة؟ نعم! كانت سيّئة، بل أكثر من سيّئة، إنّما لا فائدة من تذكّر الأشياء السيّئة، هذا شعاره، هذا ما تعلّمه في حياته المضطربة أشدّ الاضطراب، منذ

فتح عينيه ورأى الدنيا من حوله، كابوسًا لم يتزحزح بثقله الرصاصي عن صدره بعد!

وضع مفتاح جناحه على منصّة الاستقبال دون أيّ كلمة، خرج إلى الشارع، توقّف، في الشارع، أمام باب الفندق، يذهب يمينًا أم يسارًا؟ ضحك في سرّه وقال: «أيّها الشقيّ، أمضيت عمرك مع اليسار، فهل يُعقل، بعد كلّ هذا العمر، أن تذهب يمينًا!؟».

إنّما بقي سؤال واحد في مطاوي الغيب:

ماذا هناك، في اليسار!؟

ـ ٥ ـ

الضرورة بنت المصادفة، هذا، من ناحية المنطق، هو المنطق، إلاّ أنّ رئيفة وجدان، وهي على الحدود التركيّة، لم تكن تعرف هذا المنطق أو سواه، ولماذا تعرفهما وهي، في تجارتها الناحلة، بغير حاجة إلى مثل هذه الترّهات!؟

كانت تجلس على كرسي، وإلى جانبها كرسي تستند إليه، وفجأة قفز رجل إلى الرصيف، وسحب الكرسي المُسْنَد وجلس عليه، حتى دون أن يستأذنها، أو يقول لها كلمة. . وقاحة! نعم! وقاحة، ولكن ما العجب إذا كانت الوقاحة هي سيّدة الموقف في هذه الأيّام!؟

بفضول الأنثى، وإحساسها المرهف، اختلست رئيفة نظرة إلى جارها الوقح، وفي نفسها أسرّت: «يا للنحس، إنّه، عجوز أيضًا!» الحرّ شديد، ومع الحرّ التعرّق، أخرج الرجل العجوز، والوقح أيضًا، مناديل ورقيّة وراح يجفّف عرقه بهدوء،

بلامبالاة، ودون أن يلتفت إلى رئيفة، كأنّها ليست أُنثى، وكأنّها لم تكن إلى جانبه، وكأنّه لم يتطفّل عليها، ولم ينتزع، بخشونة، الكرسي الذي تستند إليه، حتى دون اعتذار، أو أيّما بادرة، أو حركة، تنمّ عن أنّه، في سلوكه هذا، كان يحسّ، مجرّد إحساس، بأنّه أخطأ، أو سلك، مع جارته، سلوكًا يفتقر إلى التهذيب!

«حيوان!» قالت رئيفة في نفسها، الله! يا ربّ، يا ربّي، يا ربّ العالمين، إلى متى هذا النَّحْسُ يلازمني! وإلى متى هذا الانتظار الطويل؟ ومعاون سائق البولمان اللعين ينتهر هذه المرأة، أو هذه الفتاة، أو هذا الرجل، والجميع ينتظرون دورهم، لتفتيش أمتعتهم، والسماح بإدخالها، أو مصادرتها، باعتبارها من الممنوعات!

ـ تفضّلي، قال نمر للسيّدة رئيفة وجدان.

ـ شكرًا، لا أدخّن هذا النوع!

ـ ومِنْ هذا النوع؟

ابتسمت وقالت:

ـ ولا من هذا النوع!

قدّم لها سيكارة كولواز وقال:

ـ هذا النوع جيّد، إنّه دخان فرنسي!

ـ وهل تحمل معك تشكيلة من السكائر؟

ـ تقريبًا . . أنا مُدمن تدخين!

ـ ومُدْمن شراب؟

ـ ليس مثل الدخان . . أستطيع، أحيانًا، ترك الشراب شهرًا أو شهرين . . أمّا الدخان فلا . . ثم لماذا لا نُدخّن والهموم كثيرة! عندنا مثل يقول: «دخّن عليها تَنْجلِ!».

ـ ألا يضرّك تغيير أنواع الدخان؟

ـ قطعًا لا!

ـ عجيب!

ـ وما هو العجيب؟ تغيير السكائر، أفضل من تغيير الزوجات!

نظرت إليه رئيفة وهي تبتسم:

ـ كم زوجة عندك؟

ـ زوجة واحدة . . ومُقْعدة مع الأسف!

ـ مُقْعدة!؟

ـ كلِّيًّا تقريبًا . . ومنذ زمن طويل!

تركته رئيفة وتحدّثت مع زميلة لها، في رحلة البولمان وفي

تجارة بعض الأشياء التي كانت، في نظره، لا قيمة لها تتناسب وعناء السفر والانتظار الطويل وكذلك رعونة معاون سائق البولمان، وقسوة رجل الجمارك التركيّة..

قالت السيّدة، زميلة رئيفة:

ـ هل هذه أوّل مرّة تذهب فيها إلى أنطاكيا؟

ـ أنا ذاهب إلى السويديّة..

ـ وأنا من السويديّة.. اسمها، الآن، «سمان داغ» أي جبل سمعان!

ـ إذن نحن أقرباء سيّدتي..

ـ وهل تحتاج، في سفرك، إلى مساعدة؟

ـ أنا لست من ركّاب البولمان، وأسافر وحيدًا.

قالت رئيفة:

ـ إنّه يسافر مع جماعة.. غير أنّه، كما قال، يركب وحده تلك السيّارة البيضاء التي تنتظره.. صحيح أم لا؟

قال نمر متوجّهًا بالكلام إلى رئيفة:

ـ تعجبني «لقشاتك»! (أي أقوالك).

ضحكت رئيفة وقالت:

ـ لَقْشاتي. . هذه كلمة نستعملها نحن العرب الذين بقوا في لواء اسكندرونة، والذي صار اسمه هاتاي الآن، كيف التقطتها بهذه السرعة؟

ـ لم ألتقطها. . عندنا أيضًا، بعض الذين هاجروا من أنطاكيا، وما زالوا يقولونها في أحاديثهم!

قالت زميلة رئيفة:

ـ ما دمتَ من السويديّة، وما دمنا من بلد واحد. . ما رأيك، بعد هذا التعارف، أن نتّفق على اللقاء في مكان ما من السويديّة؟

نبرت رئيفة:

ـ دعي الرجل يا مرّوش. .

ـ ولماذا أدعه؟ ولماذا هذه النبرة الخشنة. الرجل وأنا من بلد واحد، أمّا أنت من أنطاكيا. . فهمت!؟

ـ لم أفهم ولا أريد أن أفهم. . هو الذي جاء إليّ، وهو الذي جلس إلى جانبي. . أنا لا أتملّقه، ولا أريد شيئًا منه. . أمّا قلّة حياء يا مرّوش!

ـ قلّة حياء!؟

تدخّل معاون سائق البولمان قائلاً:

ـ بدأنا، هنا أيضًا، بالنقار!؟ على كلّ واحدة أن ترجع إلى مكانها، إلى جانب الصرر التي معها.. بدأ التفتيش.. وها هو ضابط الجمرك آتٍ إلينا، أنا لن أتشفّع لأيّ واحدة أو واحد من ركّاب البولمان.. مفهوم!؟

ردّت مرّوش بحدّة:

ـ أوّلاً سِدْ بوزك يا برهوم.. وثانيًا أنت وشفاعتك على صرمايتي، هذا الرجل من بلدي، من السويديّة، وتريد رئيفة، لا أدري لماذا، أن تحتكره لنفسها..

قالت رئيفة:

ـ وأنت، يا مرّوش، سِدّي بوزك أيضًا.. عودي إلى مكانك، أغراضي معروفة، وأغراضك، هناك معروفة، وراح نشوف من الذي يتاجر بالحلال، ومن الذي يتاجر بالحرام.. هذا الذي تتحدّثين عنه، وتقولين إنّه من بلدك، رجل محترم، صحافي يا جاهلة، جاء إليّ، جلس على كرسي إلى جانبي، تحدّث معي بأدب، ولا أعرف، حتى الآن، ما اسمه يا خنزيرة برِّيَّة!!

صاح ضابط الجمارك التركي:

ـ سكوت! سكوت! نحن نعرف ما هي حكاية البولمانات، وما هي تجارة ركّابها.. الممنوع سيُصادر، والمسموح به

سيبقى. . كلّ واحدة إلى جانب أغراضها، وهذا السيّد الذي من سورية، ينتظر انتهاء معاملته، استلام جواز سفره فقط، وهذه الضجّة، وما فيها من كلمات بذيئة، كان يجب ألاّ تحدث أمامه، أو أمام أيّ سائح يدخل تركيّا، بقصد الاطّلاع على ما فيها من حضارة، لا بقصد التجارة من أيّ نوع، إنّه يجيد الفرنسيّة، ويتكلّم التركيّة أيضًا، السيّدة رئيفة اجمعي أغراضك، عودي إلى البولمان وخذي مكانك فيه، مع السلامة. .

نظرت رئيفة إلى نمر صاحب، أدركت أنّ كلامه مع ضابط الجمارك كان حولها، يتعلّق بها، وأنّه، دون أن يقول لها شيئًا، قدّم لها المساعدة اللازمة، فصافحته بحرارة، قدّمت له رقم هاتفها في أنطاكيا، وقالت في نفسها: «هيهات!» لكنّها، عندما فتحت المغلّف الذي ناولها إيّاه دون أن يلحظه أحد، دُهشت! كان في المغلّف مبلغ من الدولارات الأميركيّة، من فئات مختلفة!

فكّرت: هل يريدني له هذا العجوز؟ يحسب أنّ سعري رخيص إلى هذا الحدّ!؟ لو ظنّ هذا لا بدّ أن يكتشف أنّه غشيم أو أهبل. . رئيفة، يا مسكين، بنت أبيها وأمّها، ليست لقيطة ولم تعرف، يومًا، دار الأيتام، أو إصلاحيّة الأحداث، نعم! كان جريئًا، مقتحمًا، انتزع الكرسي الذي أستند إليه بجلافة، غير أنّه، بعد أن جفّف العرق الذي على وجهه، التفت إليّ

بتهذيب، عرض عليّ إحدى سكائره، لم أقبلها، رفضت نوعها، قدّم لي سيكارة من نوع آخر، رفضتها أيضًا، لكنّني، في المرّة الثالثة، قبلت سيكارة من نوع فرنسي، وكانت شهيّة، طيّبة المذاق، وفاتحة حديث بيني وبينه.

قالت رئيفة وهي تدخِّن وتفكّر:

مهما يكن، ومهما بدر منه، وحتى مع تقدّمه في السنّ، فإنّه إنسان غير عادي!

غيرها قال عنه أشياء مماثلة، وآخرون وصفوه صفات فيها مبالغات أضحكته، إلاّ أنّ كاتبًا معروفًا، مجايلاً تقريبًا، كتب يقول: «منذ لقائي الأوّل به، قلت في نفسي هذا إنسان استثنائي»!

وكان نمر صاحب يبتسم إشفاقًا، فهذه «الاستثنائيّة» كانت، بالنسبة إليه، لعنة، كانت نقمة لا نعمة، بسبب من أنّ شهرته ستُعزى إلى بريق خاصّ في عينيه، وهذا البريق هو مصدر شهرته، وفي هذا إجحاف، وفيه إنكار لسهر اللّيالي في طلب المعرفة، ودونها لم يكن، في العصاميّة التي فرضها الفقر الأسود عليه، سوى كاتب لا تمايز بينه وبين الكتّاب الآخرين، ذوي الشهرة المحدودة جدًّا.

رئيفة ساقها تيّار مماثل، قالت له: «لا تنظر في عينيّ

مباشرة!» لماذا يا رئيفة؟ سألها، فأجابت: «إذا كنت ستنتهك بهذه النظرات جسدي فأنت غلطان».

ـ أنتهك جسدك!؟ سامحك الله!

اعتادته هذه الكلمات وهو يذهب يسارًا، توقّف عند بعض الواجهات، تأمّل ما فيها من عروض لأشكال من الثياب الخاصّة بالرجال، توقّف عند محلّ لبيع الخواتم وقطع الزينة النسائيّة، وجد، بعد هذا المحلّ، مدخلاً واسعًا لصالة تُباع فيها أنواع من الحلوى، وكذلك المثلّجات، ومنها «البوظة» التي يُقال لها بالتركيّة «دوندرما»، وفيها موائد صغيرة وكبيرة، يجلس حولها الناس من أعمار مختلفة، ومن الشباب والشابّات خصوصًا، يتناولون أصنافًا من الحلوى، والبوظة، وحتى أطباق الطعام، ومنها المعكرونة مثلاً، والمجدّرة، التي يسمّونها برغل بعدس، ومحشي ورق العنب، وغير ذلك.

اكتفى نمر صاحب بالبوظة، أو «الدوندرما» ومعها قطعة من البسكويت، وبعد ما يزيد عن ساعة عاد إلى الفندق مبتهجًا، متّجهًا إلى منصّة الاستقبال لأخذ مفتاح جناحه، وإذا برجل شديد التهذيب يقول له:

ـ ألست، سيّدي، من اللاذقيّة، وتنزل في الجناح ٤٠٢ في الطابق الرابع؟

ـ نعم! أنا هو، فماذا هناك؟

ـ رسالة من سيّدة اسمها رئيفة وجدان. .

ـ وماذا في هذه الرسالة؟ إنّني أتكلّم التركيّة قليلاً، لكنّني لا أُحسن قراءتها!

ـ هي رسالة شفهيّة سيّدي. . تسأل صاحبتها عمّا إذا كنت قد تلفنت لها؟

ـ أنا لم أتلفن لأيّ سيّدة. .

ـ الكاشف عند السيّدة يُشير إلى أنّك تلفنت! هي تقول هذا!

ـ آه! تذكّرت. . هذه مديرة أعمالي!

تدخّل مدير الفندق، السيّد صباح الدين ناجي أوغلو، وقال:

ـ السيّدة التي تلفنت لم تعرّف بنفسها. . إنّني أتكلّم العربيّة قليلاً، لأنّ والدتي عربيّة، ونحن نعرف أنّك كاتب، ومثلك يحتاج، طبعًا، إلى مديرة أعمال، فإذا شئت أن تأتي إليك، وكان رقم هاتفها معك، فإنّنا على استعداد لتقديم المساعدة المطلوبة. .

مدّ نمر صاحب يده مصافحًا المدير وهو يقول:

ـ شكرًا، سيّدي المدير، على هذا اللطف. . إنّني مسرور ومرتاح جدًّا في الجناح الذي أنزل فيه في الطابق الرابع، غير

أنّني في الثالثة والثمانين من عمري، وأشكو من ألم في الظهر، لذلك أحتاج إلى مديرة أعمال تتولّى ترتيب أموري.. وهذه السيّدة التي التقيتها على الحدود التركيّة في منتصف العمر، ولها أولاد شباب، وقد قبلت أن تعمل كمديرة لأعمالي مشكورة، وهذا هو رقم هاتفها!

تولّت إحدى العاملات في الاستقبال الاتّصال بها، وجاء الجواب بأنّها ستكون في الفندق حوالى الساعة الثامنة، وقال مدير الفندق:

ـ عندما تأتي هذه السيّدة، سنقوم بإيصالها إليك.. أيّ خدمة أخرى؟

ـ شكرًا جزيلاً، وآمل أن تكون مديرة أعمال جيّدة..

ـ إذا لم تناسبك، ليس من الصعب العثور على أخرى غيرها.. أنت تتكلّم التركيّة وهذا جيّد ومُفيد!

قال نمر:

ـ وهي تتكلّم العربيّة أيضًا، وتسكن أنطاكيا، ولها عائلة فيها، كما قالت..

شكرًا يا سيّدي مدير الفندق، إنّ موقعه وسط أنطاكيا، وفي وسط المدينة، ملائم جدًّا، ومريح جدًّا.. أستأذن في الصعود إلى جناحي.

بعْد حوالى نصف ساعة، رنّ جرس الباب. . كانت هذه رئيفة، ترتدي فستانًا طويلاً، تلفّ عنقها وصدرها بشال حريري، مكسوّة الساعدين، خفيفة الماكياج، ذات مظهر يتناسب والوظيفة التي ستشغلها، حتى إنّ المدير هتف قائلاً:

ـ هل كلّ شيء على ما يُرام؟ إنّها سيّدة محترمة مديرة أعمالك هذه. . نأمل أن تكون إقامتُك طويلة عندنا. .

ـ هذا يتوقّف على المهمّة التي جئت من أجلها. . لنقل، مبدئيًا، عشرة أيّام. . سأزور عائلتي في السويديّة، وهي عائلة كبيرة جدًّا. . إلاّ أنّ السويديّة، أو «سمان داغ» كما تُسمّى الآن، ليس فيها فندق واحد، هل يُعقل هذا!؟

ـ الواقع هو هذا. . ولولا ذلك ما نزلت في فندقنا، وما صار لنا شرف التعارف. . إلى الغد صباحًا!

ـ إلى الغد. . وتصبح على خير. .

فوجئ نمر، بعد إنهاء المكالمة، بشيء لم يكن يتوقّعه. . كانت رئيفة قد خلعت ثيابها، وبدت شبه عارية، فلمّا جاءت القهوة، دخلت غرفة النوم، وخرجت ضاحكة وهي تقول:

ـ ها أنا عندك. . هل كنت تتوقّع هذا؟

ـ أنتِ عندي كمديرة أعمالي. .

وإلى أيّ مدى صلاحيّات مديرة أعمالك؟

ـ صلاحيّاتها غير محدّدة!

ـ هذه بداية جيّدة.. بعد أن نشرب القهوة، نباشر هذه الصلاحيّات، ولكن من المناسب، واللائق، أن نباشرها بعد كأس أو كأسين من الويسكي، ألست معي؟

ـ معكِ تمامًا.. وقد جهّزت، قبل مجيئك، كلّ شيء.. من الويسكي، إلى الثلج، إلى بعض الطعام..

ـ وغير ذلك؟

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل الذي في بالك..

ـ ليس في بالي أيّ شيء..

ـ بلى! في بالك مثل ما في بال كلّ رجل!

ـ هذا مفهوم افتراضًا.. فما الذي في بالكِ أنتِ كأُنثى؟

ـ من يسأل سؤالاً كهذا يكن غبيًّا.. وأنت شاطر شاطر.

ـ شاطر في الكتابة لا في غيرها..

ـ وهذا هو المطلوب.. أم أنّك تختبر ذكائي كأُنثى؟

ـ أشهد أنّك ذكيّة.. عرفتُ هذا منذ رأيتك على الحدود..

ـ وأشهد أنّك ذكي.. عرفت هذا منذ فتحت المغلّف وفيه ما

فيه.. لكن انتبه.. المغلّفات تستهوي العاهرات.. وأنا لست عاهرة.. أنا مديرة أعمالك.. وأنت أعطيتني كلّ الصلاحيّات.. ومنها..

ـ منها أيّ شيء..

ـ الشيء الذي لا يكون الكاتب كاتبًا دونه!

ـ القلم!

ـ نعم القلم.. لكن ليس الذي في يدك..

ـ كفى! القلمان جاهزان!

ـ أنا، بعد خروجنا من الجحيم.. سأعرف ما إذا كان القلم الذي أريده جاهزًا، أو صالحًا لكتابة رسالة من النوع الذي يشفي غليلي!

ـ ٦ ـ

تقزّز نمر صاحب، بينه وبين نفسه، من الكلمات التي صدرت عن رئيفة، في موضوع القلمين، استشعر أنّ القلم الشريف قد تأذّى، لمجرّد الإشارة إلى القلم الآخر، الذي قالت، بغير حياء، إنّها بعد التجربة، ستعرف ما إذا كان يروي غليلها: عاهرة قال نمر، سواء مارست العهر دعارة، أو هواية، أم بسبب طلاقها من زوجها، وهي صغيرة بعد، ولجسمها عليها حقّ لا جدال فيه!

كان يفكّر في ذلك جالسًا على الكنبة، في بهو الجناح، بينما رئيفة استأذنت في الانصراف إلى شأن من شؤون المرأة، في الحمّام الداخلي للجناح، التابع لغرفة النوم، ذات السرير العريض جدًّا، كما هي الحال في الفنادق الفخمة، التي كثيرًا ما تنقّل بينها، في رحلاته يوم كان في نضج رجولته الغاربة الآن!

عادت رئيفة إليه، لا يستر جسدها سوى غلالة رقيقة، ودون

تردّد جلست في حضنه، كأنّ ذلك من بدهيّات الأمور، ومن مقدّمات ممارسة الجنس، في شبقه والاغتلام، وبغير كلام انقضّت على شفتيه، مرّة ومرّة، ثم قالت بنوع من تهتّك:

ـ انزع عنّي هذه الشلحة، (الغلالة) التي تضايقني!

نزعها نمر بنوع من القسوة، تمزّقت تقريبًا من جرّائها، فأضافت رئيفة وهي تمصّ شفتيه بنهم بالغ:

ـ وهذه التي بين فخذي حبيبي.. أم إنّك تستحي أن ترى هذا الصغير الذي فيه..

قالت ذلك ولم تكمل، فتابع هو:

ـ فيه ماذا؟

ـ تنّور أحمر!

ـ أحمر كالجحيم؟

ـ هو الجحيم نفسه.. ماذا تنتظر؟ قلت لك خلّصني منها..

ـ وبعد الخلاص منها؟

ـ تستمتع برؤية شيء صغير.. كالخاتم السحري..

ـ رأيت، في حياتي، خواتم كثيرة، وسحريّة أيضًا!

أضاف:

ـ مثل هذه القطع الصغيرة لا تُخلع خلعًا.. تُمزّق تمزيقًا!

ـ عاهر!

ـ مع عاهرة.. وهذا أفضل.. في هذه الحال أرتاح مرّتين: من تعليم التي معي فنون العهر، ومن المفاوضات التي لا صبر لي عليها!

ـ وهل احتجت معي إلى مفاوضات!؟

ـ أبدًا، لاحظت، وأنت عارية، أنّك تفحّين كأفعى في سرير، مع أنّنا لم نصل إلى أيّ سرير بعد.. لكن أرجوكِ: لا تضعي إصبعك بين أسنانك، ولا تضعيه، أيضًا، على الخاتم الذي بين فخذيك!

جفلت رئيفة، رأن ما يشبه الكدر على وجهها، انتزعت نفسها من حضنه، جلست على مقعد مقابله، صبّت كأسًا من الويسكي دون أن تتكلّم، ولاذ نمر بصمت تامّ، قاتل، وراح مثلها، يرتشف جرعات من الويسكي، دون أن ينظر إليها.. ما كان شُبهة صار يقينًا، رئيفة عاهرة، لكنّها تجهل فنّ العهر. أسلمته نفسها بسرعة، فعلت ما تفعله العاهرة في مبغى، زادت فوضعت إصبعها بين أسنانها، بعد ثوان وضعته على ما أسمته الخاتم السحري في أسفل بطنها، فضحت نفسها بأسرع ممّا كان يظنّ، انكشفت وهي عارية تمامًا، لكنّها كانت ستنكشف ولو بكامل

ثيابها، غامت صورة رئيفة التي التقاها على الحدود، ملاحتها التي أثارت انتباهه، للوهلة الأولى، وهو يجلس على كرسي إلى جانبها على الرصيف، شابها غبش ودّ لو لم يكن، إنّه لا يشتري أجساد النساء بمال، هذه الفعلة القبيحة تحاشاها ما استطاع، على مدى عمره، لكنّه، وهو في الثالثة والثمانين، شاء الحظّ، بل القدر، أن يلتقي رئيفة مصادفة، دون أن يخطر في باله أنّها عاهرة، وأنّها على هذا القدر من التسرّع، وأنّها موجودة عنده بصفتها مديرة أعماله، لا بصفتها عشيقته، لذلك لا بدّ من تدبّر الأمر، وصرفها بلباقة، دون إيذاء مشاعرها!

قال بهدوء، كعادته في معالجة الأمور:

ـ رئيفة! عندي بعض الكلمات التي أرغب في قولها، إذا كان هذا لا يضايقك!؟

نظرت إليه من خلال دموعها وقالت:

ـ عرفت كلّ ما تريد قوله.. سأرتدي ثيابي وأذهب.. أنا لا أصلح كمديرة أعمال لرجل كريم ونبيل مثلك..

ترشّف جرعات من كأسه وقال:

ـ أنا لست نبيلاً كما تظنّين.. كريم هذه فيها وجهة نظر، أمّا ما عدا ذلك فأنا رجل وأنت امرأة، أنا ذكر وأنت أُنثى، كلّ ما فعلته لأجلك كان مدخولاً، مغشوشًا، غايته، في خبث

اللاشعور، جسدك، دون أن أنتبه، في الوقت اللازم، إلى فارق السنّ بيننا.. أنتِ، في هذا العمر، قد تكونين مديرة أعمال مفيدة لي، وسنجرّب هذا منذ هذه الساعة، لكنّك كامرأة، أمارس معها الجنس، أنا العجوز، فإنّ الأمر مختلف جدًّا..

قالت رئيفة:

ـ وإذا كنت أحبّك؟

ـ الحبّ لا بدّ له من تكافؤ.. الشهرة وحدها لا تُفيد، وإذا كان لها بعض الفائدة، فإنّها لا تدوم، والمال، اللعنة على المال، يشتري طنجرة، أو غربالاً، أو حتى بيتًا..

قاطعته رئيفة:

ـ أو حتى قصرًا!

ـ هذا صحيح.. لكنّ المعادلة، عندما لا تكون تامّة، تكون ناقصة، مختلّة، سرعان ما ينكشف أمرها، يظهر فشلها.. تموت قبل اكتمال عدّتها..

ضحكت رئيفة وقالت:

ـ أنت تنسى بسرعة.. ألم تقل لي، ونحن في أوّل تعارفنا على الحدود، أفهم لقشاتك!؟

ـ بلى! قلت..

ـ كلّمني إذن بمثل لقشاتي. . صدّقني أصغيت، كلّ وقت كلامك، بانتباه لأفهم كلامك فلم أفهم إلاّ القليل. . عفوًا: فهمت كلمة واحدة: أنا عجوز! سألتك: وإذا كنت أحبّ هذا العجوز!؟

أجبت:

ـ أنتِ، في هذا الحبّ، حتى لو كان صحيحًا، ستندمين عليه بسرعة.

ـ لنجرّب! لماذا نحكم على شيء قبل أن نجرّبه!؟

ـ نجرّب ماذا؟ الحبّ؟ شكرًا! الجنس؟ آسف يا رئيفة، لا داعيَ للتجربة، صدّقيني. . أفضل ما نفعله، مع تقدّم الليل هذا، أن نشرب كأسينا، ونأكل قليلاً. . ثم ننام!

ضحكت رئيفة:

ـ ننام أين؟

ـ أنا على هذه الأريكة، وأنت على السرير!

ـ ولماذا لا يكون العكس؟

ـ لأنّك مديرة أعمالي، لا زوجتي أو عشيقتي!

ـ ما دمت مديرة أعمالك، دعني أدبّر أعمالك بمعرفتي!

كانت رئيفة تبدو، أحيانًا، كطفلة، وتبدو، في آن آخر،

كقارحة، إنّما السؤال المهمّ يبقى: هل تحبّ نمر صاحب حقيقة، كما تقول!؟

قالت، بعد أن شربت كأسها:

ـ لندع كلّ الأمور الأُخرى جانبًا، تعال معي حبيبي!

ـ حبيبك؟

ـ معلّمي!

ـ ولا هذه.. صديقي..

ـ أُستاذي! أستاذ نمر.. اتّفقنا؟

ـ ولماذا ليس بالاسم المجرّد؟

ـ أن تناديني باسمي: رئيفة! هذا طبيعي، هذا يسرّني.. أمّا بالنسبة إليك، فلا أستطيع الآن، أو في المستقبل، أن أناديك باسمك المجرّد، هناك ما يُقال له احترام.. سامحني!

قال نمر في نفسه:

«هذا يعني احترام الشيخوخة.. لماذا يا نمر، يا عاثر الحظّ، لم يكن اللقاء بينك وبين رئيفة هذه، قبل عشرين عامًا؟ وقتها، كان يمكن أن يكون بينك وبينها حبّ متبادل، حتى مع فارق غير قليل، في السنّ، أمّا الآن، فإنّها لا تريد، قصدًا، أن تناديك بابا.. هذا لا يتوافق مع ما جرى، بينكما، منذ قليل.. لقد

جاءت مدفوعة بالرغبة في إسعادك، لكنّك، أنت، أفسدت هذه السعادة المُبتغاة، بقولك لها، تصريحًا أو تلميحًا: أنتِ عاهرٌ يا رئيفة! هب أنّك عجوز، وأنّها، كردّ للجميل، أباحت لك جسدها. . وكي تبعث النشوة، في مشاعرك، استعملت كلماتٍ، أو أوصافًا داعرة، وأتت بحركات مثيرة، حركات معروفة، لكلّ أنثى، وكلّ رجل، من خلال أفلام الجنس التي تُبثّ، علانيّة، في كلّ الفضائيّات، والإيطاليّة منها تحديدًا. . أنت، يا نمر، أخرق، أو أخوت، شربت من بئر ورميت حجرًا فيها، وأنت، كذلك، داعر، وهذا ما قلته عن نفسك كتابة، في غير مرّة، ومن تجلّيات دعرك، وخوفك من أن تمضي بك إلى آخر الشوط، أي إلى السرير، لجأت إلى إثارة موضوعة العهر عند رئيفة، تجنّبًا للدخول في التجربة، هذه التي أخافت البشر والآلهة على السواء. . أتذكر الذي قال للفرّيسيّين: «لماذا تريدون إدخالي في التجربة؟» طبعًا تذكر، وتذكر أيضًا أنّك غرقت حتى مفرق شعرك استمتاعًا بجسد رئيفة الفتي، الجميل، المتّسق، المورّد، ودخلت، دون إشعال النار حولك، في جحيم من القُبَل»!؟

عادت رئيفة وهي على كبير سرور، قالت:

ـ انتهى كلّ شيء. . وببساطة تامّة. . أفرغت الحقيبة، علّقت الثياب في الخزانة، أبقيت الثياب الداخليّة في مكانها، اكتشفت أنّ هذا الجناح رائع جدًّا، هناك، في غرفة النوم، بانيو وحمّام

كامل، هذا لي، وهنا، في بهو الجناح، حمّام آخر، مماثل، رائع، وهو لك وحدك، والشرط بسيط: أستقلّ بحمّامي، وتستقلّ بحمّامك، إلاّ في حال الضرورة، كأن تحتاج إلى مساعدتي وأنت تستحمّ، أمّا أنا فلا أحتاج لذلك، أستغني عن خدماتك كلّيًّا، وسأصرخ إذا حاولت البصبصة، مثل بقيّة الرجال، كلّ الرجال، في الواقع يحدث هذا، في كلّ مكان، وليس في الأفلام السينمائيّة وحدها، أجسام النساء، الجميلات مثلي، تُغري بهذا.. حذار أن تجرّب، يا معلّمي، وإلاّ رفعت عليك دعوى.. أو في حال التساهل، شكوى إلى مدير الفندق!

ارتاح نمر راحة كبرى، وجد أنّ رئيفة صالحة لأن تكون مديرة أعماله، فكّر: بينما أنا في خضمّ من الأفكار السخيفة، حول ما صار، وما رأيته وسمعته، كانت رئيفة تستطلع كلّ مرافق هذا الجناح، تعرف كلّ ما يجب أن تعرفه، وما يجب أن يكون، إذا ما صادف أيّ نقص في علاّقات الخزائن، أو شامبو الحمّامين، أو البرانس اللازمة بعد الدوش وغير ذلك.. لا بدّ، إذن، من مكافأة، وأفضل ما هو متوفّر، كأس من كونياك ميتاكسا (METAXA) المثلوج، مع بعض من المقبّلات الموجودة، وبينها شوكولا غلاكسي..

سار كلّ شيء في مجراه، وفي حوالى الواحدة بعد منتصف الليل، كان لا بدّ من النوم، فقال نمر:

ـ هذا التخت العريض يتّسع لاثنين. . أنت في طرف وأنا في آخر. . ما رأيك؟

ـ موافقة ومسرورة جدًّا. . لحظة وأعود. .

ولمّا عادت كانت عارية إلاّ من الكيلوت، تمدّدت إلى جانب نمر، أطفأت الضوء واحتضنته، فصاح: ما هذا؟ أرجوكِ، دعيني. . لكنّها بدل أن تدعه، صارت تحته، أحكمت وضعها، رهزت، راحت وجاءت معه، وفجأة أطلقت صيحة وهي تسأل: أنا قذفت، وأنت؟ لم يجب، أعادت المحاولة، ومعها الصراخ: قذفت مرّة أخرى، ثم أخرى، وبعد الخامسة أو السادسة قالت:

ـ هذا يكفي بالنسبة لهذه الليلة. . تصبح على خير، حبيبي!

نامت عارية تمامًا، مستلقية على ظهرها، وبعد دقائق أغمضت عينيها ونامت نومًا عميقًا، غير مبالية به، أو بالضوء الشاعل، أو هواء المكيّف الذي يرزّ برودة شبه ثلجيّة، قمينة بجعل جسدها العاري متيبّسًا في الصباح.

انسلّ من تحت الغطاء الرقيق، أطفأ المكيّف، وقبل أن يغطّي جسمها الممدّد في السرير إلى جانبه، على نحو من الاسترخاء الكامل، تأمّل نهديها الصغيرين، الكاعبين، صدرها، بطنها، فخذيها، حوضها الذي فيه الخاتم السحري كما أسمته،

وكان صغيرًا حقًّا، منغلقًا تمامًا، كأنّما لم تحبل ولم تلد، ولم يمسسها رجل، مع أنّها أخبرته بأنّها مطلّقة، وأنّ ابنها الذي يعمل في السعوديّة في السابعة والعشرين الآن، وأنّ ابنتها متزوّجة، وهي حامل الآن، وأنّ والدها قد تزوّج بعد وفاة والدتها، من امرأة خرقاء، شرماء، لا تراها إلاّ نادرًا، ولا ترتاح إليها أبدًا!

من المفروغ منه أنّ امرأة الأب هذه لا ترتاح إلى رئيفة بدورها، وربّما كانت، امرأة الأب الشرماء كما وصفتها، غير شرماء، أو خرقاء، وإنّما تعرف من سلوك ابنة زوجها ما يجعلها تنفر منها، وتستشعر العيب من سلوكها الذي صار معروفًا، مبتذلاً، مكروهًا، بعد طلاقها من زوجها، هذا الزوج الذي يعمل في السعوديّة، كسبًا لبعض المال، أو هربًا منها، ومن عهرها الذي تمادت فيه كثيرًا!

ربّما، أسرّ نمر، كان كلّ هذا صحيحًا، بل هو صحيح بدليل ما بدر منها الليلة، فالارتماء في حضنه عارية دعر فاحش، والكلام المرافق دعر أكثر فحشًا، والاستسلام له، أو الارتماء بين ذراعيه، منذ اللقاء الأوّل، يجعل عهرها دامغًا، لكنّها، في هذا التسرّع تبدو والفة في فحشائها، وفي دعرها، الدالّ على إدمان في الممارسة، تحت ستار من تجارة ناحلة، يوفّر لها ممارسة هذه الدعارة، في أكثر من بلد، ومع شكوكٍ من رجال

يقضون حاجتهم الجنسيّة معها، ثم يرغمونها على قضاء الحاجات الجنسيّة للآخرين، مقابل مال قذر مثل قذارتها!

الزمن الرديء يُنجب ناسًا أردياء، والزمن الرديء هو هذا، فقد فسد كلّ شيء، واستباحت الرذيلة كلّ الفضائل، وبذلك تغيّرت حتى العناوين، صارت الحيلة فضيلة، والفلهويّة خفّة يد، والنصب شطارة، والقوادة تجارة، تبدّلت الدلالات، والعادات، والصلات، وأصبح البريق في الأسماء، والصفات، والسلوكيّات، بريقًا خلّبيًّا، فشنك، كما يُقال باللغة المصريّة الدارجة، قُواصٌ في فراغ كما في الأفلام والمسلسلات، وصار لزامًا علينا أن نرى في الصورة ما وراء الصورة، وفي الخبر ما وراء الخبر، وحتى في الفنّ، ما وراء الفنّ، هذا الذي كانت له قداسته، فسفتها ريح صفراء، كما هي في قسمات بنات الليل اللواتي تقدّم بهنّ العمر، فرحْنَ يبعن أنفسهنّ «على كيفك» ولا من يشتري، أو حتى يلتفت!!!

لا يذكر نمر في أيّ ساعة واتاه النوم ولا كَمْ ساعة نام، المهمّ أنّه نام، وعندما أفاق، رأى رئيفة جالسة تدخّن، مرتدية «الروب دي شامبر» الخاصّ به، وهي تفكّر منكّسة الرأس!

بعد تحيّة الصباح، سألها بلامبالاة:

ـ ما بك رئيفة؟

ـ لا شيء! وأنت؟

ـ أرغب في فنجان من القهوة السادة. . ولكن بعد أن أتدوّش!

ـ هيّا إلى الحمّام الخاصّ بك!

ـ وما شأنك أنت!؟

ـ شأني أنّي مديرة أعمالك! أم أنّك تستحي منّي!؟

ـ رئيفة، صديقتي، لست بالعجز الذي تتصوّرين. . أنا قادر على فعل أشياء كثيرة. . لكن ليس في السرير. .

ـ اللعنة على كلّ أسرّة الدنيا. . لكن اسمع. . من اللباقة، ونحن في النهار، ألاّ نذكر ما جرى معنا في الليل!

ـ في هذا أنت على حقّ! إنّما الحمّام. .

قاطعته:

ـ رأيت البانيو في الحمّام، ومن الواضح أنّك استعملته، لكنّك لم تضع القطعة البلاستيكيّة في أرضيّته، وهذا خطأ احذر أن تقع فيه مرّة أخرى. . أرضيّة البانيو ملساء، ومع الصابون قد تنزلق رِجْلُ المُتحمّم، تعال معي. . انظر! هذه هي القطعة ذات النتوء، توضع في وسط البانيو، ضمانًا للسلامة. . هيّا اخلع ثيابك الداخليّة، استحمّ بالشكل الذي يرضيك، وقبل الانتهاء

انده لي كي أفرك لك ظهرك. . هذا ما يُقال له دوش الصباح، ولا يحتاج إلاّ لعشر دقائق. .

جرى كلّ شيء بالشكل المناسب، وعندما خرج من الحمّام لابسًا البرنس، كانت القهوة بانتظاره، وبعدها قالت رئيفة:

ـ جاء دوري، سأدخل حمّامي الخاصّ، وقد أتأخّر فيه، المرأة غير الرجل، افتح التلفزيون الذي في البهو. . تسلَّ ريثما أعود إليك، لا تعدّ الدقائق. . لكنّني سأسرع ما استطعت، في هذه المرّة فقط!

قالت ذلك وأغلقت باب غرفة النوم وراءها، فأدرك نمر أنّها تستغني عن خدماته، ولن يفرك لها ظهرها بالليفة كما فعلت هي معه، ولن يراها عارية في البانيو أو تحت الدوش، وكان يرغب، حقًّا في ذلك، كي يرى في النهار، ما فاته في الليل، لأمر مضمرٍ في سريرته!

ـ ٧ ـ

طالت غيبة رئيفة، ومع أنّ نمر صاحب، بالهدوء المعروف عنه، لم يكن يُضار من الانتظار، وليس لديه، بعد ليلة البارحة، ما يجعله يستعجل الأمور، فإنّه لم يكن مرتاحًا لوجود هذه المرأة عنده.. المثل يقول: «المكتوب يتّضح، أو يُقرأ، من عنوانه» وقد قرأ، بأكثر وأسرع ممّا كان يتوقّع، مكتوب رئيفة، وحكم بأنّها عاهرة، وأنّ ممارستها العهر ليست بنت أمس أو ما قبله، وليس من الضروري استعادة كلّ ما فكّر فيه، أو خَبِره، من عهرها، إنّما المسألة في كونها مديرة أعماله، وأنّه عَرّف بها، على هذا الأساس، مديرَ الفندق وموظّفي الاستقبال، وليس من اللائق، أو من حُسن التصرّف، أن يستغني عنها اليوم، أو غدًا، أو بسرعة تُثير الشكوك!

إنّ لعبة الذكاء، وخبرة نمر فيها قديمة جدًّا، لها محاذيرها إذا لم تكن على قدر من الدهاء، ثم إنّ الدهاء، بذاته، يستهويه،

فهو من ولع، وشغف، تتبّع دهاء الدهاة العرب، وفي طليعتهم معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وكان نمر في صراحته، وجرأته، وكفاحه الطويل، لا يستند إلى الدهاء، إلاّ لاكتشاف الدهاء عند غيره، وقد حكم، بغير جهد، أنّ رئيفة عاهرة، وأنّها، فوق ذلك، لا تُجيد لعبة العهر، وفي هذا إشكال مردّه إلى الجهل أو الطيبة، غير أنّ النتيجة واحدة في الحالين، وهي ليست في صالحها، وليست في صالحه أيضًا، فقد تعجّل، مدفوعًا برغبة خسيسة، عمياء، في الادّعاء بأنّها مديرة أعماله، وسواء اقتنع مدير الفندق، أو تظاهر بذلك، فإنّه سمح لها بأن تصعد إليه، في جناحه. وبين الصعود والنوم ثمّة فارق خارق، لا بدّ أنّ المدير اكتشفه، إلاّ إذا كان قد غادر الفندق إلى بيته باكرًا، ومن غير المعروف بعد، ما إذا كان المدير ينام في بيته، أو في الفندق الذي يتحمّل مسؤوليّة كلّ ما يقع فيه من حسنٍ أو سيّئ!

رئيفة، بعد خروجها من الحمّام وارتداء ملابسها المحتمشة من الخارج، حلّت الإشكال خلال دقائق، هتفت إلى قسم خدمة الغرف، مستفسرة عن طعام الفطور، وأين يكون، فأفادها المسؤول فيه أنّ الفطور في قاعة الطعام عادة، ودون مقابل، أمّا إذا رغب النزيل في الفندق بأن يتناول فطوره في غرفته، فعليه أن يدفع ثمن ما يطلب، لأنّه فطور إكسترا!

قالت رئيفة، بعد شرح هذه التفاصيل:

ـ من الأفضل، طبعًا، أن نتناول فطورنا في المطعم، وبعد ذلك نفكّر في أمورنا الخاصّة.

كانت قاعة المطعم في الطابق الأوّل، وكان النزلاء يتناولون فطورهم فيها، فانتقت طاولة ملائمة، بعيدة قليلاً عن الآخرين، وبعد أن جلسا إليها، قالت رئيفة:

ـ هنا الطعام على شكل مائدة مفتوحة، ابقَ أنت، وسأقوم أنا بإحضار فطوري، فإذا راقك جلبت لك مثله.. ثم هناك شيء آخر، إذا رغبت أن تبدأ الفطور بكأس من شراب البرتقال، أو التفّاح، أو أيّ عصير آخر، فعليك أن تدفع ثمنه، أو توقّع فاتورة به عند الخروج من المطعم!

وفورًا قال نمر:

ـ أحضري، أرجوك، كأسين من عصير البرتقال أوّلاً.

أشارت إلى النادل، فجاءها بما طلبت، في كأسين مخصّصتين لذلك، وعلى صينيّة تبرق من نظافة، وبعد تناولهما، نهضت لجلب طبقها، وفيه بندورة مقشّرة جيّدة، وزبدة، وعسل، وصنوف أُخرى، بالقدر الذي تُريد، أو يُريد الزبون، دون مقابل، ثم أحضرت لنمر طبقًا مماثلاً، وقالت ضاحكة:

ـ يمكن للإنسان أن يتناول من الزبدة والعسل القدر الذي

يُريد، والرجال، عادة، يفضّلون العسل، ويُكثرون منه، لأنّه مُفيد لهم!

ـ ومُفيد لي أيضًا، أليس كذلك؟

قالت رئيفة:

ـ أنت أدرى! سأجلب لك من هذا العسل الشهي، كمِّيَّة أخرى.. فإذا لم يكن مُفيدًا للجسم، فإنّه مُفيد لشيء آخر.. ما رأيك؟

ـ رأيي أنّك مديرة أعمال جيّدة.. ولن نفترق ما دمتُ في أنطاكيا!

ـ وأنت مدير عمل ممتاز.. آمل أن نجد طريقة للبقاء معًا، وأن نوفّق لإقناع كلّ من في هذا الفندق بالعلاقة الرسميّة هذه، من المدير إلى أصغر موظّف فيه.

وهذا ما جرى فعلاً، فبعد العودة إلى الجناح، اتّصل نمر بالمدير، ونزل إليه في مكتبه ورئيفة معه، قدّم له ربطة عنق جميلة لا تزال في غلافها النايلوني، وطلب منه، إذا كان ممكنًا، أن يسمح مدير الاستقبال، لمديرة أعماله، بالاطلاع على ودائعه النقديّة، وتسجيلها!

سأل المدير:

ـ وماذا بعد ذلك، هل يحقّ لها أن تسحب من هذه الودائع؟

ـ طبعًا إذا كنت معها، أو إذا كان لديها تفويض منّي، بسحب مبلغ معيّن.

بعد العودة إلى الجناح قالت رئيفة، وهي تقبّله:

ـ شكرًا على هذه الثقة، وشكرًا مضاعفًا على هذا الذكاء، أنت تعرف أنّني لن أتصرّف إلاّ بمعرفتك، ولن أسحب دولارًا إلاّ إذا كنت معي، غير أنّك، ببراعة، جعلت منّي مديرة أعمالك رسميًّا، وجعلتني معتمَدة من قبلك، وهذا بالنسبة لي، وبالنسبة لأهلي، شرف كبير، واحترام أكبر.. سيعرف الجميع، الآن، أنّني موظّفة لذيك، ومهمّتي مديرة أعمالك!

ابتسم نمر وقال:

ـ أنت، يا رئيفة، على كفاءة طيّبة للقيام بهذا العمل، وجديرة به تمامًا، ولن أحدّد أجرك، فما معنا هو ملكنا، وما في هذا الجناح ملكنا أيضًا، خذي هذا المبلغ البسيط، حوّليه، في طريق عودتك إليّ إلى ليرات تركيّة.. مع السلامة، وتحيّاتي لوالدك وأهلك!

كان المبلغ (٥٠٠) دولار أميركي، فقالت رئيفة أقترح تحويل (٣٠٠) دولار فقط، إضافة إلى ما معنا من الليرات السوريّة، هنا، في تركيا، اليورو هو المفضّل، إنّما الدولار له قيمته في كلّ مكان.

لاحظ نمر أنّ رئيفة مطّلعة على كلّ ما عنده، وقد تعمّد، مساء البارحة، إبقاء نقوده التي لم يضعها في الأمانات، وهي قليلة، على الكوميدينة الداخليّة قرب السرير، فلم تمدّ يدها إليها، كما لم تعدّها، كأنّ أمر هذه النقود لا يعنيها، لذلك قال:

ـ أرجوك، رئيفة، أن تتصرّفي بالمبلغ كاملاً، على سبيل الاحتياط، أمّا المبلغ الذي بالليرات السوريّة، من فئة الألف، فسننظر في أمره غدًا أو بعد غد.. هل في أنطاكية محلاّت صرافة رسميّة وقانونيّة؟

ـ نعم! وهناك محلّ صرافة قرب المطعم الذي سنأكل فيه، أحيانًا، غداءنا، إذا وجدت طعامه طيّبًا.. إنّه مطعم مشهور، وأسعاره مناسبة.. هل أذهب الآن؟ ومتى أعود؟

ـ عودي متى تريدين.. لندع هذه الشكليّات جانبًا، ومنذ الآن.

قبّلته رئيفة وانصرفت، مُدركة أنّه يُجيد اللغة التركيّة، مستعملاً الكلمات اللطيفة، الراقية، لكنّه، لأمر ما، لا يُفصح عن ذلك، تاركًا لها ترجمة أقواله كما يرغب، سواء عند المدير العامّ، أو في الاستقبال، أو في بهو الفندق، حيث يجلس الكثيرون، كما في أيّ مقهى أو كافيتيريا!

استلقى نمر على السرير العريض، التماسًا للراحة أو النوم، لكنّه لم يسترح ولم ينم، كان النوم عزيزًا عليه، نادرًا ما يؤاتي،

وهذه حاله منذ كان طفلاً، نحيلاً، عليلاً، مشكوكًا في أنّه سيعيش، حتى من قِبَل أَخَواته، لكنّه عاش، وتغلّب حتى على التيفوئيد، الذي كان يحصد الأطفال، في زمن سابق لاكتشاف البنسيلين، لعشرات الأعوام، عاش هذا الذي كان فاجرًا، بكّاءً، صرّاخًا، منرفزًا، اضطرّت والدته لإعطائه الخشخاش، في منديل مخرّم، بدل اللّهّاية، كي يسكت ويغفو، سواء النهار أو الليل، فيهدأ البيت قليلاً بعد إغفائه، الذي لا يط غالبًا.

«أنت يا نمر ملعون من الله وعبده!» «وأنت يا نمر هو البلوى بعينها» «هذا الولد خلق ومعه تشكيلة من الأمراض» وبعد ستّين عامًا سيقول عنه طبيب أمراض عصبيّة ونفسيّة: «إنّه سليم وغير سليم، أمر محيّر!» لكنّ نمر يردّ على الطبيب مازحًا: «لا مُحيّر ولا بلّوط، مرضي هو الوسواس القهري!» فيجيبه الطبيب: «هذا التشخيص منقوص سلفًا» «ولماذا منقوص سلفًا!؟» «لأنّه مثل كلّ كلامك عن خبث اللاشعور، هلوسة!» «الهلوسة يا حكيم هي، في المآل، جزء من الوسواس القهري، هذا الداء الذي جعل الرسّام الشهير فان كوغ يقف أمام المرآة، ويقطع أذنه ليهديها إلى حبيبته!» «هذا الرسّام كان عبقريًّا، وبسبب من عبقريّته جُنّ، هل تُريد أن تقول إنّك عبقري مثله؟» «لا! أنا عبقري مثلك، وهذا كلّ شيء» قال الطبيب ضاحكًا: «المهمّ أنّ أعصابك سليمة تمامًا» أجاب نمر «لا! أعصابي غير سليمة.. والبليّة أنّني

أعرف ذلك، من لا يعرف يسترح» قال الطبيب: «أخيرًا اتّفقنا، قولك هذا صحيح جدًّا، ونصيحتي هي: «قلّل من معرفتك، تسترح وتُرِحْ!».

صاح نمر مثل أرخميدس: «وجدتها، عليّ أن أستريح من هذا التفكير السائل مثل الزمن، حول ما إذا كانت رئيفة عاهرة خصوصيّة أم عموميّة» أضاف: «وما ضرّني لو كانت خصوصيّة أم عموميّة؟ غدًا أو بعده، أصارحها بحقيقة مرضي، فنفترق ثم لا لقاء!» عليّ الآن أن أبترد قليلاً، أتدوّش، كعادتي، بماء بارد، وبعده يأتي الكونياك المثلوج، فأشرب لأنسى، أو لأتذكّر، وهذا من بعض سوء حظّي «أن أحمل الحزن لا شكوى ولا ملل/ غدر الأحبّة حزن ما احتملناه!» ومصير هذه العاهرة أن تغدر بي، في يوم بعيد من الأيّام.. وعندئذ يكون الحزن الذي لا يُحتمل من طرفي، والأسف الذي لا يُحتمل من طرفها!

المرأة ورقة بيضاء، والمرأة، كذلك، ورقة سوداء، وما دام لكلّ ورقة وجهان، فقط رأى نمر الوجه الأبيض لورقة رئيفة، لكن حذار من الوجه الأسود، الذي لم يره، وقد لا يراه في المدى المنظور، إلاّ أنّه موجود بغير شكّ، فمتى يراه يا ترى!؟ نعم! اللعبة بدأت، وكلّ لعبة تنطوي على مغامرة، وهو يدّعي أنّه مع المغامرة على موعد دائمًا، وتأكّد ادّعاؤه هذا في مغامراته التي من كلّ نوع، على مدى ثلاثة أرباع عمره على

الأقلّ، إلاّ أنّه، الآن، في أرذل العمر، والمغامرة في مثل هذا العمر مؤدّاها إلى التهلكة، فحذار من المهالك، حتى لو كانت حساباته دقيقة في هذا الشأن، وكانت رئيفة على مقاس هذه الحسابات.

«سلوا قلبي غداة سلاء وتابا/لعلّ على الجمال له عتابا» ونمر له هذا العتاب على الجمال، وبرغبة شهّاء، واندفاع مراهق، بسبب من علّة جسديّة فيه، لا يخفيها كلّيًّا، ولا يبوح بها تمامًا، إلاّ عند الضرورات القصوى، يُضاف إلى ذلك أنّه من القائلين بشباب الروح وشيخوخة الجسد، وقد شاخ جسده، وظلّت روحه شابّة، وظلّ قلبه يهفو إلى ملاحة الوجه، ووسامة الساعد عند المرأة، فكيف الحال إذا كان الصدر جميلاً، والنهدان كاعبين؟ وكيف يفعل ورئيفة بكلّ جمال جسدها، واتّساق تكويناته، وصغر نهديها، والخاتم السحري الذي قالت إنّه في نهاية حوضها، وأعلى فخذيها، كاشفةٌ عنه، داعية نمر إلى ملامسته، دغدغته، وخضّه لمعرفة أيّة حرارة جهنّميّة تتّقد فيه!؟

لو حدث هذا لأيّوب الصابر لترك صبره، ولو رآه ديوجين، الذي كان يحمل فانوسًا في النهار ليرى إنسانًا، لترك الفانوس والبحث، وقال «رأيت الإنسان الكامن في هذا الخاتم السحري، والدنيا، في جهاتها الأربع، تشهد عليّ!».

«لا إمام سوى العقل» قال المعرّي، وأخطأ لأنّ العقل مرنٌ

يبرّر الخير والشرّ معًا، وقال له بدوي الجبل «يا ناكر التفّاح في وجناتها/لو ذقت بعض شمائل التفّاح!؟» ونمر، في اللقاء الأوّل، وفي الليلة الأولى، ذاق شمائل التفّاح في كلّ أطيافه، رأى الجسد عاريًا، والفم هذا، «الأحمر المشقوق» حارّ الشفتين، عنيف القبلة، والساعدين العاريين، والنهدين الكاعبين، وأعطى أصابع يده اليمنى للنار غير المقدّسة، في ملامسة «الخاتم السحري» الصغير، المنغلق الشفرتين، المدوّر كالنقطة التي هي ختام الإبداع، في شبقه المجنون..

كلّ هذا حدث، صار، انقضى، انتهى، إلاّ أنّ استطالاته بقيت، ودار، في رأس نمر، حول هذه الاستطالات ألف سؤال وسؤال.. أنت حبيبي قالت له، فقال نمر في نفسه: «أنت كاذبة يا فاسقة!» وقالت له بعد تناول الفطور «لن نفترق بعد اليوم» فتذكّر بطرس وصياح الديك، وقالت له «أنت حبيبي!» فشكّ، وتذكّر توما الشكّاك، وفلسفة الشكّ عند ديكارت التي أخذ نطفتها الأولى من «التلميذ الصالح». «كفى!» قال نمر وهو يهمّ بتناول كأس من كونياك METAXA اليوناني، فإذا بالباب يُدقّ، وعليه رئيفة مع حقيبة صغيرة، ورجل وضّاء الوجه حزر أنّه والدها!

«لا تزر وزارة وزر أُخرى» هذا اعتقاده، وما يعتقده يغفله، فالفكرة مهما تكن جميلة، التطبيق وحده يعطيها مصداقيّتها، في

حسنها والقبح، ورئيفة أثبتت أنّها مديرة أعمال ناجحة، فعلاً لا قولاً، وها هي تجلب معها حقيبة ثيابها كي تبقى معه، فتُقدّم ما هو مطلوب منها، في حدود العمل الموكل إليها، وهذا، في دلالته، يؤكّد أنّ لها خبرة في هذا المجال، مكتسبة من الأعمال التي زاولتها بعد طلاقها من زوجها.

جاءت القهوة، كان مذاقها مع الكونياك رائعًا، وكان حديث الأب شائقًا، يتكلّم التركيّة بطلاقة تخالطها كلمات عربيّة، وأشعار عربيّة، منتماها الديني واضح السمات، لكنّه لا يجد حرجًا في شرب الكحول، والعرق خصوصًا، الذي يستقطره، ككلّ العرب الآخرين، في بيته، لأنّه لا يُباع في الأسواق كما يبدو، أمّا في مطعم الفندق، على العشاء، فقد تناولوا البيرة التركيّة، اللذيذة، السائغة، التي شرب منها نمر وفضّلها على أيّ شراب آخر، حتى الويسكي نفسه.

في الليل، بعد وداع الأب، لم تفتعل رئيفة ما هو خارج طبعها، وقد لاحظ نمر أنّ التصنّع ليس مسلكها في الحياة، فهي نديمة كأس بغير تحفّظ، محدّثة لَبِقة، حسنة الغناء، بالتركيّة خصوصًا، مُحبّة لبعض الأغاني العربيّة، مثل «كمان يا حليوة يا مسلّيني» وبعض أغاني المطرب صباح فخري، وتضحك لكلّ أغنية فيها «أمان» قائلة: «حياتنا نحن العرب، وكلّ الشرقيين أيضًا، أمان في أمان!».

كان الجناح، في بهوه وغرفة نومه، مكيّفًا، لكنّ التعرّي لا بدّ منه، وقد اكتفى نمر بالبروتيل والبنطال، بينما تعرّت رئيفة إلاّ من الشلحة والكيلوت، ولم تكن ماجنة، أو فاسقة، أو خليعة، أو بذيئة الكلمات مثل الليلة الفائتة، وفي غمرة فرحها، ومرحها قالت:

ـ أنت يا نمر حبيبي، لكنّك تشكّ في حبّي، وفي إخلاصي، ووفائي أيضًا.

ردّ نمر دونما تردّد أو إطالة تفكير:

ـ صحيح!

ـ كيف أفعل لأجعل ثقتك بي جيّدة؟

ـ لا تفعلي شيئًا!

ـ ولماذا أنا عندك؟

ـ لأنّك مديرة أعمالي!

ـ فقط!

ـ فقط!

ـ هذا بسبب ارتمائي في حضنك كامرأة رخيصة؟

ـ كامرأة من هذا الزمان!

ـ وما عيب المرأة التي من هذا الزمان؟

ـ رديئة مثل رداءته!

ـ يبدو أنّك عدوّ المرأة.

ـ لا عدوّها بغير تحفّظ، ولا صديقها بغير تحفّظ أيضًا.

ـ ألا تشعر بقسوتك عليها؟

ـ لا أشعر سوى بقسوتي على نفسي. . أنا لست مع الغرور ولا مع التواضع، كلاهما صفتان سيّئتان!

ـ أنت أناني!

ـ صحيح!

ـ وأنت تشرب من البئر وترمي فيها حجرًا!

ـ صحيح!

ـ وأنت تتشوّف لأنّك تملك حفنة من الدولارات الأميركيّة.

ـ صحيح!

ـ وأنت تتكبّر وتتجبّر لأنّك ركبتني البارحة.

ـ خطأ!

ـ تنكر؟

ـ لا نكران مع الحقيقة. .

ـ وكيف تفهم الحقيقة؟

ـ بجلافة!

ـ حتى مع المرأة؟

ـ خصوصًا مع المرأة!

ـ وكيف أحببت النساء؟

ـ هنّ اللواتي وقعن في حبّي.

ـ وأنت؟

ـ لا أعرف شيئين في هذه الحياة: السكر والحبّ!

ـ وتريدني أن أصدّقك؟

ـ لا أطلب من أحد أن يصدّقني.. أنا هو ذاتي، لا أعرف السكر ولا الحبّ.. وليس لي وقت أقضيه في مفاوضات غراميّة مع أيّ امرأة.

ـ وكيف، بهذا الطبع، أحبّتك النساء؟

ـ النساء ركعن أمامي.. هذا الذي جرى.

ـ وتريدني أن أركع أمامك؟

ـ أعفيك من هذا.. أنت آخر امرأة تدخل حياتي!

ـ وسأبقى فيها!

ـ أنتِ أوّل من يخرج منها!

ـ هذا رأيك؟

ـ هذا يقين!

ـ ابن قحبة!

ـ هذه ليست جديدة. . أمّي كانت امرأة تقيّة نقيّة. . أمّا أنا، وأقول هذا لعلمك، فإنّني ابن قحبة مرتّب على كيفك!

ـ تخيفني؟ أنا لا أخاف، وفي حياتي عرفت الكثير من الفشّارين أمثالك!

ـ أمثالي لا. . لكنّكِ عرفتِ رجالاً، كما عرفتُ أنا نساءً، وهذا طبيعي! الزنى ليس في «الخاتم الذهبي» أو الفضّي، الزنى الحقيقي في الأخلاق يكون، وأنت، منذ عرفتك على الحدود، لم أجد لديك هذا الزنى الأخلاقي، أمّا في المستقبل فسيعرف أحدنا الآخر بشكل أفضل، ويكون حكمه أفضل أيضًا، لماذا العجلة؟

ـ لأنّك أثرتني متعمّدًا، ونجحت في ذلك. . هل أنا آخر امرأة تدخل حياتك حقًّا؟

ـ الكذب رأس المعاصي، لذلك لا أقترفه، طبعًا هناك أشياء لا أقولها، لأنّها تخصّني وحدي، أمّا ما أقوله فهو صادق تمامًا.

ـ وبهذا الصدق، أنا آخر امرأة تدخل حياتك؟

ـ طبعًا!

ـ وآخر امرأة تخرج منها؟

ـ أكيدًا!

ـ وإذا كنت أحبّك، وسأبقى في حياتك!؟

ـ هذا شأنكِ!

فكّرت رئيفة وقالت:

ـ الحديث معك له طعم خاصّ.. حلوٌ رغم مرارته! صادفت رجالاً كثيرين، عرفت رجالاً كثيرين، ولم أجد من يشبهك على ما أذكر، ما رأيك في أن نخرج لنشمّ هواء الليل قليلاً؟

ـ هذا اقتراح جيّد.. هيّا!

خرجا بثياب خفيفة، سارا في الشارع العريض، توقّفت عند بعض المحلاّت تستعرض ما فيها من ثياب، ولمّا رأت واجهة تعرض أنواعًا من الخواتم، انتقت خاتمًا حجره أزرق، وضعته في إصبعها وقالت:

ـ ما رأيك؟

ـ رأيي أن يبقى في إصبعك..

قال ذلك ودفع ثمنه فورًا، بغير أخذ وردّ. . ثم دخلا الصالة الكبيرة المحاذية لهذا المحلّ، فتناولا البوظة، وعادا إلى جناحهما في الفندق. . ودون سؤال أو جواب، جهّزت قدحين من الكونياك وقالت:

ـ بصحّة مديري العزيز!

ـ هذا نخب جيّد. . بصحّة مديرة أعمالي!

ـ تحبّ مديرة أعمالك كما تحبّك هي؟

ـ أحبّها لا. . ليس لأنّي لا أحبّ، بل لأنّ التوافق بيننا مفقود. . العمر، يا رئيفة، له دور، وله حدّ أيضًا. . وأنا أعرف حدودي!

ـ أنا سأتخطّى حدودك كلّها. . أردتَ أم لم ترد. . ألا يعجبك جسمي بشكل عامّ؟

ـ إنّه متّسق بشكل رائع. .

ـ والنهدان؟

ـ صغيران، جميلان، وحلمتاهما كمنقار حجل. .

ـ وكيف يكون منقار الحجل؟

ـ أحمر مورّد. . يستثير الشهيّة. .

ـ خذني في حضنك قليلاً، مصّ الحلمتين دون عضّ. .

ـ والكتفان؟

ـ عضّهما دون ترك علامة. . لا أريد أيّ علامة على جسمي لأنّ لي أولادًا.

ـ أنا لا أتعامل مع جسم امرأة بشروط مُسبقة من أيّ نوع. .

ـ هيّا إلى الفراش. . أنا كلّي لك وبغير شروط. .

ـ وإذا كنت غير قادر؟

ـ دع هذا لي. . سأجعلك قادرًا جدًّا. . لحظة. . أشعل الأضواء، تمتّع برؤية هذا الجسم الفتيّ. . إنّه لك وحدك. . حبيبي!

وتمتّعت رئيفة، شهقت، قذفت، بدت في احمرار عينيها، وانفلاش شعرها، كثمرة من ثمار البنغال، وبعد ذلك أغفت. . بينما نمر مكتئب. . يستجدي النوم ويتألّم من شدّة الاحتقان!

ـ ٨ ـ

في اليوم الثالث، كما في اليوم الأوّل والثاني، كانت رئيفة في ذروة من الغبطة والرضى، تُمارس حياتها الجديدة والطريفة في انتشاء تامّ، مكتشفة في نمر، عدا الكرم ولياقة التصرّف، خصالاً حميدة، تتجلّى في محبّة ذويها، واحترامهم، وتقديم بعض الهدايا لهم، واعتبارهم أفرادًا أعزّاء، في العائلة التي تضمّه ورئيفة، والتي تحوّلت، بسرعة، من لهوٍ إلى جدّ، ومن لوثة الجنس، إلى ألفة المعاشرة، ومن الكلام النابي ذوقًا، إلى حديث عذب بين قلب وقلب!

جاءت آفلي، بنت رئيفة، تزور أمّها في الفندق، فاستقبلها نمر كما لو كانت ابنته، وبحرارة الوالد الحقيقي، ولأنّها حامل، في الشهور الأولى، فقد نصحها أن تتصرّف كما لو كانت في بيتها، وأن تستريح على السرير، في برودة المكيّف المنعشة، وأن تغلق الباب بين غرفة النوم والبهو في الجناح، وقبل

الذهاب إلى الغداء، دعاها إلى انتقاء الهديّة التي تريدها، فاختارت قيمصًا حريريًّا جديدًا، وربطة عنق لزوجها، وفي المطعم، خارج الفندق، أحاطها بعناية خاصّة، وأوصلها إلى بيتها في السيّارة التي هي في تصرّفه.

ومن المفروغ منه أن تكون الأمّ سعيدة، ما دامت ابنتها سعيدة، وعلى العشاء، في المطعم الذي اختارته رئيفة، التقى نمر بزوج آفلي، وهو قبطان شابّ، يتولّى قيادة سفينة عابرة للقارّات، وتدوم رحلته أحيانًا بضعة أشهر، يُجيد الإنكليزيّة والعربيّة قراءة وكتابة.

رئيفة التي وجدت نفسها، خلال أيّام فقط، في جوّ عائلي بهيج، غير متوقّع، غمرها شعور فرحٍ لم تعرف مثله في حياتها، ولاحظ نمر أنّ رئيفة أحبّت هذا الجوّ، وصارت تبذل جهدها، كي تتلاءم معه، وتتصرّف كسيّدة بيت، لا زائرة، أو عابرة، في طلب لذّة جسديّة، حسِّيَّة، أو نفعيّة، وإنّما كزوجة مُقيمة مع زوجها، بكلّ معنى الزوجيّة، تحت ستار عمل معروف، ذي اعتبار كامل، هو القيام بواجبات مديرة أعمال، عند رجل أعمال، يزور أنطاكيا للمرّة الأولى، وغايته، في الأصل، زيارة عائلته في السويديّة، التي لم يجد فيها فندقًا، فاضطرّ إلى الإقامة في فندق أنطاكيا الكبير هذا، وخلال إقامته يزور أهله في

السويديّة من حين إلى حين، ويصطحب رئيفة معه كمديرة لأعماله.

عرف نمر، في حياته مع رئيفة، لونًا جديدًا للسعادة، ولأنّ الفرح قصير في حياتنا كشرقيّين، فإنّه كان يفكّر بالطريقة المُثلى، للإمساك بهذا الفرح، لإبقائه أطول مدّة ممكنة، برعاية زوجته المفترضة رعاية خاصّة، تجعلها تنتقل، مرّة وإلى الأبد، من وضع غير لائق، غير مستقرّ، إلى وضع لائق، مستقرّ، دائم، هانئ، تتوفّر فيه كلّ الشروط للعيش الكريم، الذي يُنسيها ما عانته مع زوجها السابق، من نكد ومرارة واضطراب، وما واجهت، بعد طلاقها منه، من قسوة الظروف التي أفضت بها إلى احتراف تجارة غير مريحة، غير مربحة، أُسوة بالنساء الأخريات اللواتي هنّ في مثل وضعها، وإن تباينت الأسباب الدافعة إلى هذا الوضع بين امرأة وأخرى.

ولأنّ رئيفة صغيرة السنّ، ولجسدها عليها واجب، فقد عرفت اللّذّة والألم، كواقع لا كنظريّة، مثلها في ذلك مثل الملايين من نساء ورجال، فالمرء عندما يجوع يشعر بالألم، ولإسكات الألم يأكل فيشعر باللّذّة، لكنّه يجوع مرّة أخرى، فيأكل ليشعر باللّذّة مرّة أخرى، وفي هذا التداول، بين لذّة وألم، وألم ولذّة، يكون قد طبّق نظريّة أبي بكر الرازي، دون أن يسمع به، وفي هذا التطبيق اللاواعي لنظريّة واعية، ينسرح

المفعول المتداول قسرًا على البطن كغريزة، فيشمل كلّ الغرائز الأخرى، ومنها، وأهمّها، غريزة الجنس، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، والخبز الذي من حبّة القمح المباركة، له مدلولات لا عدد لها، بدءًا من غريزة الحياة، التي تعقبها، في أرذل العمر، غريزة الموت، إلى كلّ الثنائيّات التي هي مفتاح الفلسفة، في كلّ صنوفها وفروعها.

ولم تكن رئيفة، في ممارسة الجنس بعد طلاقها من زوجها، إلاّ مسيّرة، سواء في لذّة وألم البطن، أو لذّة وألم الجسد، أو لذائذ وآلام الغرائز الأخرى، و«من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر» وليس نمر هو الذي يرجم غيره، إلاّ إذا كان قد رجم نفسه أوّلاً، والرجم هو الموت، ونمر على قيد الحياة، إذن المسألة، هنا، في خانة «القضيّة المقضيّة» وعليه ألاّ يحاسب رئيفة على ما سبق من تعارفهما، كما هي لم تحاسبه، تصريحًا أو تلميحًا، على ما فعل قبل تعارفهما.

نمر في الثالثة والثمانين، وهي في الثانية والأربعين، والجوع الجنسي يتبدّى في حركاتها وملامحها، والنكاح، حتى مع هذا الفارق من العمر، لا بدّ أن يكون في الإيلاج، فكيف إذًا تقذف في حال من الهستيريا الشبقيّة، دون أن يولَج فيها؟ دون أن يكون معه، أيّ نوع من المنشّطات، ودون أن يستعمل منشّطًا حتى لو كان معه؟ هنا سرٌّ ما، سرٌّ اكتشفه بحكم تجاربه، سرٌّ

تركه سرًّا حتى تأكّد من أنّ رئيفة تمارس العادة السرِّيَّة! تنام تحته، تقبّله، تعتصره وهي عارية، تدفعه إلى اعتصارها بكلّ قوّتها وهو عارٍ أيضًا، تأخذ يده إلى «الخاتم الذهبي» الذي في أسفل بطنها، تترك له، هو الخبير، أن يستعمل أنامله، تمسك بالأنمل الأوسط، هنا حبيبي، هنا، من الداخل، من الشفارين، لامسهما برقّة، بقوّة، بقوّة أشدّ، ثم إلى الداخل، أعمق، أعمق، وبعد هذه التهيئة، تمدّ إصبعها وتصرخ، بصوت عالٍ: إنّني أقذف! لنقذف معًا، اهصرني، خذني بين ذراعيك، آه! آه! هذا يرضيني، مرّة أخرى، وأخرى، وأُخرى، كفى! كنت رائعًا، حبيبي، دعني هكذا، عارية، إلى الصباح.

يتركها عارية، يتأمّلها وهي عارية، يطفئ الأضواء، يحاول أن ينام، يستعين بما يُساعده على النوم، ينام قليلاً أو كثيرًا، لكنّه ينام، وفي الصباح، بعد أن يستحمّ، يحاول إيقاظها، تصرخ «دعني أنم، بعد، دعني، أرجوك، أنا تعبة، وأشعر بصداع خفيف، أغلق الباب عليّ، لا أحبّ ضوء النهار، في العتمة أجد نفسي أفضل».

هذه اللعبة، هذه المسرحيّة بفصل واحد، كان نمر هو الحاضر الوحيد فيها، وهو الشاهد الوحيد عليها، ومع أنّها جديدة عليه، مثيرة لشهوته، فإنّ الاحتقان كان يؤلمه، فيهرع إلى الماء البارد، والمزيد من الماء البارد، ويقسم أنّه لن يشهد هذه

المسرحيّة مرّة أخرى، ولن يُشارك فيها، أو يكون حتى من المتفرّجين عليها، لكنّه، في الليل، وفي السرير، والجسد الجميل العاري ملك يديه، والنهد، في حلمته التي بلون وردي خفيف، بين شفتيه، ثم هذا النهد أيضًا، حتى لا يزعل حبيبي، وتنقلب رئيفة لتنام على صدرها، تاركة رابيتها لملامسة يده، طالبة منه أن يضع حوضه عليها، إنّما حذار من محاولة الإدخال فيها، فيعتلي الرابية، ذاكرًا قول الجواهري «فإن شئتِ على رابية ضعيني» وها هي الرابية، فتنة للناظرين!

أيّام الهناءة تمضي بسرعة، كلّ الأيّام تمضي بسرعة، ونحن الذين نستعجلها، مع أنّها تقرّبنا من نهايتنا، والأيّام الأربعة أو الخمسة مع رئيفة، كانت هنيئة كما لم يعرف نمر الهناءة في حياته، أو غزارة تجاربه مع النساء، هنيئة بطعم خاصّ، وطقس خاصّ، كما لو كانت هبة أميرة أسطوريّة، أو منحة سماء، لذاذتها علويّة، ليست من أرضنا، ليست من مألوفاتنا، وليست، في المفاجأة، من المفاجآت العاديّة التي تبوخ نكهتها، من البشم الذي يغتالها سريعًا!

صباح اليوم السادس، بعد تناول القهوة والفطور، وبعد الدعابات والأمنيات، وحتى بعد الكلام على المستقبل، وكيف تراه رئيفة، وتخطّط له، في المدى المنظور، أو الأبعد قليلاً، من ناحية التبذير، أو الإفراط والتفريط في شراء ما لا يلزم، أو

ما لا ضرورة له، في هذا الصباح، كان نمر يصغي ولا يصغي، كان حاضرًا غائبًا، يُمارس شعورًا مُشفقًا، حَدِبًا، على مخلوقة لها تجاربها، ولها ممارساتها، السيّئة والحسنة، إلاّ أنّها، مع ذلك، تتبدّى في براءة طفلة، يُفرحها الخاتم ذو الحجر الأزرق، الرخيص، الذي اشتراه لها، فوضعته في سبّابة يدها اليمنى، فخورة به كأنّه خاتم ماسيّ!

هل هذا كلّه دعابة!؟ وهل الدعابة هذه، إذا ما كانت، بريئة؟ وما هي البراءة أصلاً، في زمن رديء ينجب، بالضرورة، ناسًا أردياء؟ نمر صاحب ليس قاسم أمين، الإيمان المطلق بنصرة المرأة، أو الانتصار لها من ظلْم الرجل، مدخول لأنّه مطلق، علينا أن نكون في صفّ المرأة، أفضل الرجال إلى جانبها يكونون، وهذا واجب، لكن ليس بإطلاق. حبّ المرأة كحبّ الشعب، وعلينا، في الحُبّين، أن نقتصد، فالحبّ أعمى يقول المثل، ولأنّه أعمى فإنّه لا يرى إلاّ الحسنات، وفي المرأة، أو لدى المرأة، كما لدى الشعب، أخطاء، ينبغي لنا ألاّ نسكت عنها أو عليها، أن ننبّه إليها، ونحاول إصلاحها، مهما يكن ذلك شاقًّا، أو شاسع المسافة. . رئيفة امرأة، في ربيع العمر، بينما نمر في شتاء العمر، وحبّها له، حتى لو كان صادقًا، فإنّه متسرّع، ولن يدوم، وهذا ما يفكّر نمر فيه، وما يريد قوله، والتأكيد عليه، حتى لا يكون هناك ندم، أو فراق، أو عداوة في المستقبل. . ما ينبغي هو الفراق، تذهب رئيفة في طريق،

ويذهب نمر في طريق آخر، وكلّ ما هو صعب في البدء، تهون صعوبته بعد ذلك، فإذا كان الصدأ سرطان الحديد، فإنّ الفراق سرطان الحبّ، وهذه بدهيّات!

قال نمر بلطف وهدوء:

ـ أصغي إليّ يا رئيفة، عندي ما يجب أن أقوله لك، وهذا الذي سأقوله تعرفينه يقينًا، وتتجاهلينه يقينًا، عن عمد أو غير عمد.. أنا لست بالرجل المناسب لك.. هذا رأيي القاطع والصادق!

قالت رئيفة:

ـ هذا هو الرجل، كلّ الرجال مثل بعضهم، يقضون حاجتهم ويمضون.. أنت أخذت من جسدي كلّ ما تريد.. وبعد ذلك تبحث عن حجّة كي تتركني.. اتركني من غير حجج، وفي أمان الله!

قال نمر:

ـ هذا ما توقّعته تمامًا: الزعل، أو حتى الغضب، أو ما هو أشدّ منه!

ـ الأشدّ منه لن أقوله..

ـ أقوله عنكِ: أنت نذل! أليس كذلك!؟ نعم! أنا نذل ككلّ الرجال، لكنّني، صدّقيني، أُشفق عليك، فقد أجهدت نفسك

طوال الأيّام الخمسة الماضية لإرضائي، لكنّني لم أكن راضيًا.. كنتِ، أنتِ، تبلغين الذروة وأنا في الحضيض..

ـ كلّمني باللغة التي أفهمها أرجوك.. ما هي الذروة وما هو الحضيض!؟

ـ الذروة أن تقذفي، وبشكل قسري مُفتعل، إخفاء للحقيقة، ولإرضائي، ولا حاجة للتفصيل.. إصبعك قام بالواجب لا أنا.. ليس لي القدرة لجعلك تقذفين بشكل طبيعي، كما لو كنت مع رجل شابّ، وليس مع عجوز مثلي..

ـ وإذا كنت أحبّك، وأفضّلك، أنت العجوز كما تدّعي، على أيّ رجل في عزّ الشباب؟

ـ تكون هذه تضحية تُشكرين عليها، لكنّ المسألة ليست هنا.. إنّها أفظع من ذلك..

ـ أفظع من ذلك!؟

ـ بكثير.. وهذا سرّ يعزُّ عليّ أن أبوح به.. إلاّ مرغمًا.. أنا، يا رئيفة، عدا العجز الجنسي بسبب التقدّم في العمر، لا أستطيع القذف منذ ما يُقارب الثلاثين عامًا!

ـ وإذا لم تقذف؟

ـ يكون الاحتقان والعذاب المرّ..

ـ لكلّ علّة دواء!

ـ علّتي ليس لها دواء إطلاقًا. . استشرت كلّ الأطبّاء، وجرّبت كلّ الأدوية دون فائدة. .

ـ إلامَ تريد الوصول؟

ـ إلى الفراق بحكم الضرورة!

صاحت رئيفة وهي تبكي:

ـ لا! كلّ شيء إلاّ هذا. . لا تقتلني! لا تتركني. . أرجوك!

فكّر نمر قليلاً، وسأل:

ـ ولماذا أقتلك!؟ لديّ اقتراح. . أن ندع هذه المسألة إلى وقت آخر.

ـ إلى وقت لا آخر له. .

ـ لنشرب كأسًا ونذهب إلى الغداء. .

ـ نذهب بشكل طبيعي. .

ـ بشكل طبيعي تمامًا. . وأرتاح أن يكون معنا والدك وابنتك والقبطان!

ـ سأهتف لهم. .

ـ اهتفي، ادعيهم بإصرار. . معهم سنكون على ما يرام. .

وعلى الغداء، في المطعم المفضّل لدى نمر، كان كلّ شيء على ما يرام، وازداد إعجابًا بالقبطان فأهداه أحد كتبه!

بعد الغداء ذهب كلّ إلى بيته، عادت رئيفة ونمر إلى الفندق، لبس الشورت مع البروتيل، استلقى على الجانب الذي تعوّده من السرير العريض، فعلت رئيفة مثله، دون أن تخلع فستانها، ابتسم وقال: «خذي حرِّيَّتك!» قالت «حرِّيَّتي في عدم إزعاجِكَ» قال في نفسه: «هذا جواب لَبِق، فيه قدر من التهذيب الزائد، فلماذا؟» في الجواب أسرّ: «ولمّا صار ودُّ الناس خِبًّا/ جزيت على ابتسام بابتسام!» قالت: «بماذا تفكّر؟» أجاب: «بلا شيء!».

ـ هل هذا ابتكار جديد؟ التفكير بلا شيء ليس تفكيرًا!

ـ التفكير بلا شيء، إجازة من التفكير عندي!

ـ هذا تصنّع!

ـ مقابل تصنّع آخر!

ـ أنا، في رأيك، أتصنّع؟

ـ وتعرفين ذلك أيضًا! اخلعي هذا الفستان، النوم غير مُريح عندما لا نخلع الثوب الذي كنّا نلبسه في الخارج، في المطعم مثلاً!

ـ لا أريد إثارتك فيكون الاحتقان الذي تحدّثت عنه.

ـ إذا أخذنا بهذه القاعدة، أكون محرومًا من رؤية جسم أيّما امرأة، منذ ربع قرن على الأقلّ. .

احتضنته وهي في كامل ثيابها وقالت:

ـ آه لو تعرف كم تألّمتُ لأجلك!

ـ وآه لو تعرفين مدى ألمي وأنا محروم من رؤية مفاتنك!

ـ إذا كان هذا حرمانًا، فسأبقيك محرومًا أكثر، كي تحبّني أكثر!

ـ هناك، في حياتي، امرأة جميلة، حرمتني من وصالها كي لا تخسرني إذا نلتها!

ـ هذا ما تفعله المرأة المحبّة حقًّا!

ـ لكنّ المرأة المحبّة حقًّا هذه، خانت حبّها، وخانتني مع أتفه الرجال! فأين العفّة إذا كانت عفيفة في حبّها؟ وأين الشرف إذا كانت تتمرّغ في وحول رجال لا شرف لهم!؟

ـ أفهم من هذا أنّك تُعيب سلوك مثل هذه المرأة.

ـ أُعيب تدليسها فقط. . أمّا جسمها فإنّها حُرّة في شأنه!

ـ وهل بقائي في ثيابي وأنا إلى جانبك فيه تدليس!؟

ـ فيه دجل!

ـ هذه كلمة غير مناسبة.. بقائي في ثيابي كان لأجلك، كي لا تُستثار!

نهض وهو يقول:

ـ الإثارة تمّت، وهربًا منها سأخرج إلى الشرفة..

ـ وبعد الشرفة تحلو الكأس!

ـ هذا صحيح..

ـ جهّز لنا كأسين ريثما أعود.. لن أتأخّر..

عندما عادت، كانت الكأسان جاهزتين.. وكانت هي عارية، لكنّها مشوّقة، فقبّلته وقالت:

ـ هكذا هي رئيفة مع حبيبها، مشتاقة، مولعة، تريده وتخاف عليه بعدما سمعت أنّه يتأذّى.. لكن اسمع! ما دمت احتملت المرأة وأنت تتأذّى ربع قرن، في وسعك احتمالي حتى أموت.. أو تجعلني قهرًا أموت.. لماذا لا تصدّق أنّني أحبّك!؟

أضافت وهي تبكي:

ـ في الليلة الأولى كنت بالنسبة لي رجلاً كسائر الرجال.. بل أقلّ من الرجال الشباب.. لكنّك، بعد ذلك، تمايزت عنهم جميعًا.. بالكرم، بالمعرفة، بالنباهة، بالهدوء، بالتفكير المتأنّي، برفض العتب والعتاب، والأهمّ أنّك لا تحكم على

المرأة بماضيها، تحبّ عائلتها كما تحبّها، بل أكثر ممّا تحبّها، تعطيها المجال، والحقّ، في أن تتصرّف تلقائيًّا، كما لو كانت زوجتك، وكما لو كانت مديرة أعمالك، دون أن تجعل الذين معك يلحظون الفارق..

أخذ نمر منديلاً، مسح دموعها، سقاها من كأسه، قبّلها في خدّها ورأسها، لم يقل كلمة واحدة.. ليكن صمت، أحيانًا، الصمت أيضًا كلام، كلام بغير كلام، راحة من الكلام، آه لو كان هناك أسبوع للصمت، كما هناك أسبوع للنظافة، لماذا الصيام، في كلّ أشكاله، ومختلف انتماءاته، ليس فيه نهيٌ عن الكلام، كما فيه نهيٌ عن المنكر؟ ولماذا الصوم، عند الجميع، فيه امتناع عن كذا وكذا من الفعل، وليس فيه امتناع عن القول؟ وفي القول بعض ما يجب أن نمسك عنه، وأوّل ذلك زلّة اللسان، والنميمة، والاغتياب، والشطط، والخطأ الذي يورث الندامة.

كان نمر يفكّر لأنّه لا يستطيع إلاّ أن يفكّر، دماغه في حركة لا يقوى على إيقافها إلاّ في النوم، والنوم رغبة عزيزة غير مُدركة إلاّ قليلاً، وخلال «كلّ هذه اللعنة التي اسمها لزوم ما لا يلزم، في التفكير» كانت رئيفة تضع رأسها على ركبته صامتة، مفكّرة بدورها، في أشياء هي من خصوصيّاتها، لا تقول لأنّها لا تُقال، سيّئة كانت أم حسنة، ولأنّ أحدًا لم يسألها عنها، حتى

نمر نفسه، صار عزاؤها في الكأس، والكأس مُرّةً تكون، حين هي العزاء الأخير، لكنّها، ورأس رئيفة يستريح على ركبة نمر، لم تكن كأسًا حلوةً أو مُرّةً، إنّها كأس والسلام!

ـ وماذا بعد!؟ سأل نمر بعد رجوعه من رحلة تفكيره؟

ـ وماذا قبل!؟ ردّت رئيفة وهي عاجزة عن قول كلّ ما تريد باللغة العربيّة، ولشدّ ما قالت أشياءها بالتركيّة، معتذرة عن ذلك، ومؤكّدة، في الوقت نفسه، أنّ هذا الإنسان الجديد في حياتها يفهمها تمامًا، لأنّه يُجيد اللغة التركيّة، ويُصرّ، أمام الآخرين، أن تُترجم ما يدور من حديث باللغة العربيّة. . لماذا؟ سألت مرّة ومرّة، دون جواب واضح، لذلك كان نمر، بالنسبة إليها، رجلاً غامضًا!

مع ذلك حاولت، ما وسعها، أن تبحش في هذا الغموض، دون أن تتوصّل إلى جوهره، وقد ساءها أن يكتشف، في هذه الأيّام القليلة الماضية، غير قليل ممّا كانت ترغب، أو تتظاهر أنّها ترغب، في إخفائه عنه، وإذا كان على شكّ في أنّها تحبّه، مع هذا الفارق في العمر، فإنّ شكّه ربّما كان مبرّرًا، أمّا إعجابها به، وإخلاصها له، فليس من حقّه الشكّ فيهما، لأنّها مخلصة حقًّا وصدقًا، وعازمة فعلاً أن تبقى معه، وأن تسافر معه، وأن تكون مديرة أعماله، وعلى وفاء كامل له في إدارة هذه الأعمال، إلاّ أنّها، بإحساس داخلي مُبهم، لا تثق بعد بأنّه

يريدها بهذه الصفات، إنّه يُريدها كأُنثى، كجسد، لأنّه محروم، لأسباب ذاتيّة، من التمتّع بمثل هذا الجسد، الذي رآه، وتفرّس فيه، ولمس كلّ جوارحه، كلّ مكوّناته، وافتتن بها، وصار أسيرًا لها، يُعاني من أسره في الوقت نفسه، طالبًا الخلاص من هذه المعاناة، بعد أن يرتوي، ولن يرتوي، بسبب من علّته الكارثيّة التي ابتُلي بها، وبإيجاز شديد، نمر يبحث عن جسد خاصّ به وحده، دون أن يكون ذلك ممكنًا، وهذا اعتقاده!

طُرق الباب، ارتدت رئيفة «الروب دي شامبر» الخاصّ بنمر، وفتحت الباب صارخة:

ـ بابا!

نهض نمر وهو يقول: «خوش كلدن صفا كلدن» أي على الرحب والسعة!

فقال الأب رائف وجدان ضاحكًا:

ـ لماذا، يا أستاذ، تكلّمني باللغة التركيّة، وأنا أتكلّم العربيّة نثرًا وشعرًا؟

ـ للتمرين، للتمرين!

ـ تَمَرَّنْ مع رئيفة..

ـ وهذا ما أفعله.. إلاّ أنّ رئيفة لا تتخلّى عن «لقشاتها!».

ـ ألا تعجبك «لقشاتي!» هل نشرب القهوة؟

ـ نشرب القهوة والكونياك ونتغدّى بعد ذلك. . يا والدي! رئيفة مسافرة معي إلى سورية. .

ـ جيّد، جيّد، هي أمانة في عنقك!

ـ أمانة في عنقي، إلى أن أُعيد الأمانة إلى أصحابها.

ـ على بركة الله.

ـ وبإذنه تعالى!

انتهى كلّ شيء، رئيفة مسافرة مع نمر، ما تبقّى أن تعدّ نفسها للسفر، أن تعود إلى غرفتها الوحيدة، لقطع الكهرباء عن الثلاّجة، وتوزيع ما فيها على مَن تريد، والدها، إخوتها من هذا الوالد، جيرانها، صديقاتها، ثم ضبّ حقيبتها، والرجوع، نهائيًّا، إلى الفندق، لتوضيب حقيبة نمر، والاتّصال، هاتفيًّا، بمكتب السيّارات التي تسافر بين أنطاكيا واللاذقيّة، وتحديد موعد الانطلاق صباحًا، وفي وقت مبكر، قبل اشتداد حرّ آب اللهّاب!

قالت رئيفة، ليلة السفر، وهي عارية بين ذراعي نمر، في السرير العريض:

ـ كنت أرغب بشراء بعض الأشياء، لكنّ الجمارك. .

قاطعها:

ـ لا ترحم، أعرف ذلك، كنت خائفة عندما التقينا على الحدود، لكن علينا، الآن، النزول إلى منصّة الاستقبال، لدفع الحساب، ومعرفة كم يتبقّى معنا!

ـ سنفعل هذا، بغير عجلة، أنا مستمتعة، هكذا، بين ذراعيك..

ـ فهمت ماذا تقصدين.. لكنّنا على سفر، الأفضل الاحتفاظ بقوّتنا، مرّة واحدة تكفي..

ـ كما تريد.. مرّة واحدة، وبقوّة، بقوّة شديدة، تليق بوداع هذا السرير الذي أحببته، لأنّني وجدت نفسي فيه وأنا معك!

ـ ما رأيك أن نؤجّل ذلك إلى الليل؟

ـ كما تريد، ولكن بعد سلفة على الحساب.. ولمرّة واحدة، هذا وعد، حبيبي!

ـ وعدكِ هذا غير مضمون.. الأفضل أن نؤجّل ذلك إلى الليل.. هيّا!

قفز من الفراش واتّجه إلى حمّامه.. تمطّت، تأوّهت، سمع صوت آهتها، أدرك أنّها لجأت إلى عادتها السرِّيَّة، هزّ رأسه ولم يتفوّه بكلمة واحدة.

فرحة رئيفة، بعد دفع حساب الفندق، كانت كبيرة:

ـ انظر حبيبي، لدينا وفر كبير ٥٠٠ دولار وبعض الكسور.. نستطيع، لولا الجمارك السوريّة، شراء بعض ما يلزمنا!

ـ مثل ماذا؟

ـ معطف شاموا..

ـ أنتِ وما تريدين!

ـ والجمارك؟

ـ تُصادره إذا تعنّتتْ وأصرّت..

ـ هل نُغامر؟

ـ ولماذا لا؟ اشتري كلّ ما تريدين، احتفظي فقط بأجرة الطريق!

ـ أنت قلت لي إنّك تحبّ المغامرة.. وسأكون مثلك.. أطيعك في كلّ شيء!

قفز، دون وعي، إلى ذهنه هذا السؤال: هل أنت صادقة؟ وكي لا يلفت انتباهها قال ضاحكًا:

ـ أعطني أجرة الطريق وهي سبعون دولارًا، وتصرّفي بما تبقّى..

ـ والجمارك؟

ـ مسؤوليّتها عليكِ!

ـ وأنت. . تتخلّى عنّي؟

ـ لن أركع على ركبتي طالبًا منها السماح. . هذا آخر ما عندي!

ـ وأنا لن أرقص إرضاءً لها. .

قال في نفسه: «كنت، يا رئيفة، تتاجرين، ذهابًا وإيابًا، وأنت تعرفين الجمارك ورجالها جيّدًا، وعلى طرفي الحدود، فما الداعي لهذا التمويه، إن لم أقل الكذب؟» أضاف «ولكن رجال الجمارك يتغيّرون، وقد تكون رئيفة محقّة في الحيطة والحذر. . إلاّ إذا كان في حقيبتها مخدّرات مثلاً، وهذا مستبعد». . «دع التقادير تجري في أعنّتها» يا نمر. . «هي ليلة والوداع، آه تعا ودّع!».

وكانت ليلة الوداع هذه هي آخر الليالي العشر في هذا الفندق، ومثلها أو أكثر فحيحًا في السرير، وفي الصباح التالي، في الساعة الثامنة صباحًا، ركبا السيّارة وهي تمسك بيده، وبعد أن اجتازا الحدود التركيّة كانت المفاجأة، خرج رجال الأمن السوري لاستقبال كاتبهم المحبوب نمر صاحب، وكذلك فعل رجال الجمارك. وبعد التحيّات، وشرب القهوة، كان الوداع،

فلمّا وصلت السيّارة إلى مفرق كسب، متّجهة إلى اللاذقيّة، كانت الدهشة بالغة على وجه رئيفة، فلم تستطع الامتناع عن توجيه هذا السؤال إلى نمر:

ـ مَن أنت!؟ خبّرني، أرجوك!

قال السائق:

ـ ومَنْ يكون بعد الذي رأيتِ!؟

ـ ٩ ـ

الانحدار من مفرق كسب إلى اللاذقيّة، بين غابات الصنوبر والسنديان والبطم والزعرور البرّي، وكلّ تلك الأحراج الكثيفة، من على جانبي الطريق، شكّل متعة بصريّة رائعة، بعثت الدهَش في نفس رئيفة، كحلم ليلة صيف على سطح بناء فخم، تحت سماء صافية الزرقة، ساطعة النجمات، من حول المجرّة ذات التوهّج المكوكب، كثريّا منيرة تتدلّى بمصابيحها المشعّة، من سقف صالة بيضاء واسعة جدًّا.

رئيفة سبق لها أن اجتازت هذا الطريق، ذا الأكواع الكثيرة، الحادّة المنعطفات، المخيفة إلى حدّ ما، بسبب من أنّ السير عليه، باتّجاهين، رغم ضيقه وكثرة منحدراته، إلاّ أنّها اجتازته وهي في بولمان كبير، وليس في سيّارة سياحيّة فارهة خصوصيّة، ومع أشكال من نساء ورجال، محشورين فيه مع كلّ ما معهم من حقائب وأكياس، فيها صنوف متعدّدة، من تجارة ناحلة!

بعد اجتياز قسطل معاف بقليل، توقّفت السيّارة أمام دكّان واسعة، فيها خضار وفواكه وسكائر وعلب حلوى وبسكويت، وكلّ ما تضمّ بقاليّة مثلها، اعتادت السيّارات العاملة على هذا الطريق التوقّف عندها، للراحة وللتسوّق معًا، وفي مقدّم هذه البقاليّة بضع طاولات عليها صحون، وحولها كراسٍ من خشب وقشّ، وإبريق ماء وكؤوس.

ترجّل نمر ورئيفة، وركض السائق أمامهم بانتقاء طاولة لهم، وبعد أن جلسا جاء صاحب البقاليّة مرحّبًا، وبعده جاء شابّ يمسح وجه الطاولة الخشبي، فنادى نمر السائق وناوله خمسمئة ليرة سوريّة، كي يأتيه بأفضل ما في البقاليّة من فاكهة، لكنّ السائق اعتذر قائلاً:

ـ الضيفة، يا بك، هنا من صاحب المحلّ، مجّانيّة..

ـ أنت، أعطه هذه النقود، ودعه يتصرّف..

قالت رئيفة:

ـ أمثال هؤلاء طمّاعون.. الضيافة هنا مجّانيّة، مقابل الربح بما يشتريه المسافرون.. السيّارات الكبيرة والصغيرة، وكذلك البولمانات، تتوقّف هنا، أو في البقاليّات المشابهة على الطريق.

قال نمر:

ـ أعرف هذا، لكنّني أدفع كي يأتوا إليّ بما أريد أنا، لا بما يريدون هم. .

قال السائق:

ـ يا بك. .

قال نمر:

ـ أنا لست من البكوات، هذا أوّلاً، وثانيًا أريد عنبًا وتينًا من النوع الممتاز!

ـ سيقدّمون أفضل ما عندهم من عنب وتين وأنواع الفواكه والمرطّبات.

ـ أفضّل الماء في كأسين نظيفتين. . وهذه النقود وزّعها على مَنْ تُريد!

قالت رئيفة:

ـ لا داعي للتباهي حبيبي!

نظر إليها بعتب وقال:

ـ نمر، يا رئيفة، ليس من أصحاب العادات السيّئة هذه. . إنّه لا يتباهى، لكنّه يعرف الناس هنا، كما تعرفين أنت الناس في أنطاكيا أو السويديّة!

ـ أنت أدرى. . لكن إلى متى هذا الغموض؟

ـ عن أيّ غموض تتحدّثين؟ قلت لك أنا صحافي.. من اللقاء الأوّل!

ـ أنت من الخارج صحافي.. ولكن من الداخل!؟

ـ أحد رجال المباحث! هل يكفي هذا الإيضاح للانتهاء من مقولة الغموض؟

ـ إذا كان ما قلته يزعجك أعتذر عنه.. لكنّني لم أكن أتصوّر..

قاطعها:

ـ تصوّري يا رئيفة كما تريدين.. لكنّني محبوب من القرّاء.. هذا ما يسمّونه الحظّ، أنا إنسان محظوظ..

ـ ليس الحظّ وحده.. لكن علينا أن نتذوّق هذا العنب، وهذا التين الفاخر وهذا.. أنت دفعت ثمن ما قدّموه لنا.. وبشكل مُضاعف!

في السيّارة، بعد أن انطلقت بهما نحو اللاذقيّة قال السائق:

ـ منذ اللقاء غير العادي على الحدود، عرفت أنّك إنسان كبير، محبوب، ومتواضع.

ـ وماذا أيضًا؟

ـ وماذا أكثر من ذلك!؟

ـ الأكثر هو أنّني إنسان بسيط. . وأحبّ البساطة في كلّ شيء. .

سألت رئيفة:

ـ أين ننزل في اللاذقيّة؟

ـ في فندق الكازينو. . على البحر. .

ـ وهل حجزت غرفة لنا فيه؟

ـ ولماذا الحجز؟

ـ لأنّ هذا هو الأصول!

ـ اعتدت على مخالفة الأصول!

ضحك السائق ورجل الجمرك التركي الذي سمح له نمر بالركوب معه، وقالت رئيفة:

ـ لا فائدة من الأسئلة!

قال السائق:

ـ هذا صحيح. . البك يتصرّف بثقة، دون أن يتكلّم على هذه الثقة. . هذه عادته. . هذه أوّل مرّة يركب معي رجل كبير مثل البك. . وببساطة مثل بساطته، ثم لا يتحدّث إلاّ قليلاً عن نفسه. .

قال رجل الجمرك التركي:

ـ هذه عادته.. المهمّ أن نصل إلى الفندق الذي يقول عنه..

ـ إلى فندق الكازينو.. والطريق إليه معروف.. لا نحتاج معه إلى دليل!

بعد المستديرة الأولى، عند مدخل اللاذقيّة، طلب نمر من حكمت السائق أن يأخذ يساره ويمضي إلى أمام، وعند العدليّة أن يأخذ يمينه، ويمضي مع الشاطئ إلى أمام، فإذا بناء كبير، شيّده الفرنسيّون عندما كانوا في سورية، يبدو لهم. توقّفت السيّارة عنده، ورفض السائق ورجل الجمارك التركي، إلاّ أن ينقلا الحقائب إلى داخل البناء الكبير، حيث وضعاها في البهو الواسع، وبانصرافهما تولّى المسؤول عن الاستقبال أمر إدخال هذه الحقائب إلى «السويت» (الجناح) رقم ٢٤٢ الذي ينزل فيه نمر عادة.

بعد قليل جاءت القهوة، وجاء المرافق والسائق حنين فادي، فقال نمر لرئيفة:

ـ انتهت الرحلة، ومتاعب الطريق، تستطيعين، بعد تناول القهوة، الاستلقاء على السرير الذي يعجبك، ثم أخذ الدوش، وفي المساء نتناول طعامنا في مطعم جفنون القريب، أو مطعم جواد على شاطئ البحر.

قالت فورًا:

ـ أفضّل المطعم الذي على شاطئ البحر!

قال حنين فادي:

ـ بعد أخذ الدوش، نذهب في نزهة إلى الشاطئ الأزرق، ومن هناك إلى مطعم جواد حيث يعدّ لنا أبو أيهم مائدة أقرب ما تكون إلى البحر، فنسمع خرير الماء ونحن نأكل.

انسحبت رئيفة من بهو الجناح إلى الداخل، أغلقت الباب، سألت من يكون حنين فادي هذا؟ قال نمر: «مرافقنا وسائقنا ودليلنا الذي يعرف كلّ شبر في هذا البلد. . اطلبي منه كلّ ما تشائين، في أيّ وقت، دون تردّد، إنّه، بالنسبة إليّ، الصديق الوفي، الأمين والمؤتمن على كلّ شيء».

قالت:

ـ أنا، يا حبيبي، لا أعرف العادات هنا، هل يمكن أن تساعدني وأنا أتدوّش؟ ثم أين الحمّام والمناشف والشحّاطة، وأين أخلع ثيابي!؟

ضحك نمر وقال:

ـ أنت، هنا، في بيتك تمامًا. . اخعلي ثيابك في غرفة النوم، وهذا هو البانيو، وهذه هي المناشف، وكذلك الشحّاطة، فماذا تريدين بعد؟

ـ أن نتدوّش معًا. . هل هذا ممكن؟

فكّر قليلاً وشرع بخلع ثيابه:

ـ غير الممكن يصير ممكنًا وبكلّ بساطة. . هذا هو الصابون والإسفنجة، ادخلي إلى البانيو، ولكن بحذر خشية الانزلاق لأنّ البورسلين أملس. . افتحي صنبور الماء الساخن، إنّه فاتر عادة في مثل هذا الوقت، وهذا أفضل!

ـ وماذا لو دخلت قبلي؟ هل قفَّلت الباب؟

ـ باب الحمّام طبعًا. .

ـ وباب غرفة النوم؟

ـ لا حاجة لقفله. . قلت لك أنت هنا كما في فندق أنطاكيا، وكما في بيتك، هذا الفندق لا يدخله أحد بغير إذن، فكيف غرفة النوم والحمّام!؟

ـ لكنّ الأشياء فيه قديمة جدًّا!

ـ هذا فندق أثري، بناه الفرنسيّون قبل مئة عام، كفى كلامًا ولنبدأ. .

كانت رئيفة سعيدة، مغتبطة، تركت لنمر الحرِّيَّة في أن يتصرّف على هواه، شريطة ألاّ ينسى نفسه، لأنّها ستساعده كما ساعدها. . وبعد الحمّام خرجا إلى غرفة النوم بمناشف كبيرة

وليس ببرانس. وعندما انتهى كلّ شيء، تركها نمر وحيدة تتشيّك على كيفها، وخرج إلى بهو الجناح بعد أن طلب القهوة له ولها.

في النزهة على طريق الشاطئ الأزرق، والدنيا غروب، بعث فتون الجوّ، مع الأغاني العربيّة، ما هو فوق الغبطة المعتادة في رئيفة، وبصوتها العذب، المفعم حنانًا، راحت تغنّي «قدّك الميّاس يا عمري» وذراعها يطوّق خصر حبيبها المُدّعى، بغير تحفّظ، وحنين فادي، بصوته الرخيم، يغنّي معها، والسيّارة، وسط الأضواء، تشقّ طريقها بصعوبة بسبب الازدحام الشديد، فقالت رئيفة:

ـ ما رأيكم أن نسهر هنا الليلة؟ روعة المكان فوق ما كنت أتصوّر!

قال حنين فادي:

ـ الرأي للمعلّم!

ـ وأنا؟

ـ أنت وأنا وكلّ ما في الفندق وخارجه بأمر المعلّم!

ـ ورأيي؟ لا قيمة له؟

ـ أنت معلّمتي، وأنا في خدمتك، لكنّ الكلمة للمعلّم، أوّلاً وأخيرًا.

ـ لم أكن أعرف هذا، وأستغربه!

ـ لا تستغربي.. غدًا أو بعده تتعلّمين مثل غيرك!

ـ أتعلّم ماذا؟ طاعة المعلّم!؟

ـ طاعة مَن إذن؟

ـ طاعة نفسي..

ـ وما الفرق؟ نفسك ونفس المعلم واحدة!

ـ لا! ليست واحدة.. هناك فرق كبير!

ـ الفرق الكبير هذا في أنطاكية وليس في اللاذقيّة!

قال نمر:

ـ حنين يُمازحك يا رئيفة!

ـ بأيّ حقّ؟

ـ بحقّ القيادة.. هو من يقود السيّارة لا أنا!

ـ وأنت ساكت كأنّ الأمر لا يعنيك!

ـ الذي لا يعنيني هو «اللّتّ والعجن».. أي السخافات..

«عندك بحريّة يا ريّس!.. بزنود قويّة يا ريّس!».

ـ جميلة هذه الأغنية.. ولكن.

«من مينا لمينا يا ريّس!».

ـ وتصفّق!؟

ـ صفّقي أنت أيضًا.. ماذا جرى يا رئيفة؟ المزاح حلو أيضًا!

بعد بناية كبيرة، حيث ينتهي الحرج، انكشف الطريق، لاحت أضواء، وبين مجموعة من السيّارات المتوقّفة، أوقف السائق حنين السيّارة وقال:

ـ وصلنا تفضّلوا!

ـ هنا! صاحت رئيفة، في هذا المكان المترب والقذر، يوجد بحر!؟

ترجّل نمر من السيّارة الصغيرة الضيّقة، ساعدها على الخروج منها، أمسك بذراعها وهو يقول: توقّي التعثّر بالأحجار الصغيرة، هذا هو المدخل، وبعد خطوات نكون في بناء المطعم!

ـ والبحر؟

ـ بعد البناء!

ـ والسمك؟

ـ في جيبي!

قال نمر ضاحكًا.

ـ سؤالي مضحك، أنا غبيّة أحيانًا، وأسئلتي مضحكة! أين نجلس؟

قال حنين:

ـ كلّ هذه الطاولات لنا.. اجلسي في المكان الذي يعجبك، للراحة قليلاً!

جلس نمر إلى طاولة قريبة من باب الخروج، وإلى جانبه رئيفة، وجلس حنين مقابلهما، وجاء سمير، أبو أيهم، مرحّبًا، فقبّل نمر وقال:

ـ اشتقنا! أين هذه الغيبة؟

ـ في تركيا..

ـ في اسطنبول؟

ـ لا! في أنطاكيا، ثم عند أهلي في السويديّة.. السيّدة رئيفة مديرة أعمالي.

وضع سمير يده على صدره مرحّبًا بها، وقال:

ـ أهلاً وسهلاً بالخانم.. هل تتكلّم اللغة العربيّة؟

قالت رئيفة:

ـ أنا عربيّة يا سيّد. . من عرب أنطاكيا، ولكن أين البحر؟ وأين السمك؟

ـ اشربوا القهوة أوّلاً. . الطاولة على الشاطئ تمامًا، كالعادة. . ولكنّ الخانم، بهذه السكربينة الناعمة. .

قال نمر ضاحكًا:

ـ لا تخف عليها. . رياضتها المفضّلة تسلّق الجبال. .

قال حنين:

ـ وقطع الأنهار. .

ـ لكن هنا لا جبال ولا أنهار. . هنا رمال. .

سألت رئيفة:

ـ ما هذا الكلام الغريب؟ جبال وأنهار ورمال. . وفوقها سكربينة ناعمة، وأنا كالأطرش في الزفّة!

قال حنين:

ـ لا تستعجلي رئيفة خانم. . الوصول إلى البحر له تعب، والسمك له ثمن، وأنطاكيا غير اللاذقيّة. .

قاطعته رئيفة:

ـ وأنت غير نمر!

ـ طبعًا، لكنّ المعلّم لا يستغني عنّي، وأنا لا أستغني عنه.. أمّا أنت..

ـ أنا يمكن الاستغناء عنّي!؟

ـ هذه مسألة تخصّ المعلّم..

ـ تخصّ المعلّم كيف؟ ماذا تقصد؟ أنت معه من زمان؟

ـ هو! هو! من أعوام ونحن لا نفترق أبدًا، حين يكون في اللاذقيّة، أو عندما يطلبني إلى عنده، في الشام.. وهناك غيري وغيري، وعنده، صدّقيني، غيرك وغيرك..

ـ عنده غيري..

ـ كزوجة أم كمديرة أعمال؟

ـ من الشكلين..

قال سمير:

ـ تفضّلوا.. الطاولة جاهزة!

سألت رئيفة:

ـ جاهزة أين؟

ـ على شاطئ البحر!

ـ وأين البحر..

قال حنين:

ـ في جيب المعلّم . .

قالت رئيفة بانزعاج :

ـ اسمع أنت يا . .

ـ حنين !

ـ يا سائق . .

ـ مقبولة منك . . وبعد؟

عاد سمير الواقف بالانتظار :

ـ تفضّلوا . .

نهض نمر ، نهض حنين . . ظلّت رئيفة جالسة . .

قال سمير :

ـ وأنت يا خانم . . تفضّلي أيضًا !

ـ ولكن إلى أين !؟ أنا لا أرى البحر !

ـ البحر بعيد قليلاً !

ـ والطريق؟

ـ صعب قليلاً . . أمامنا مسافة . .

ـ مسافة صعبة !! قال سمير .

قال حنين :

ـ استندي على المعلّم يا معلّمتي.. أمامنا مسافة صعبة.. وبعدها مسافة أصعب..

ـ كلّ هذا العذاب حتى نصل إلى البحر!؟

ـ أنت اتّكلي على الله وعلى المعلّم.. «من يركب البحر لا يخشى من الغرق!».

ـ ١٠ ـ

بعد الخروج من بناء المطعم، كانت هناك أرض واسعة، في آخرها طاولات وأضواء، وكان الطريق صعبًا، فيه، تحت الأرض، صخور، لا بدّ من الدوران حولها، ولا بدّ من الانتباه إلى بعض الكتل الإسمنتيّة، غير البارزة، وغير الواضحة في العتمة، رغم الأضواء الخافتة، تليها الرمال، وهي رمال متحرّكة، تغوص الأقدام فيها، والمسافة بين بناء المطعم والبحر، ليست بعيدة، وليست قريبة، أو هكذا يجدها من يجتازها للمرّة الأولى، وباختصار، قالت رئيفة:

ـ هذه مغامرة!

قال حنين:

ـ المعلّم يحبّ المغامرة. .

ـ بهذا الشكل؟

ـ وألعن!

توقّفت رئيفة لتخلع حذاءها.. نصحها نمر بإبقاء الحذاء في قدميها، لفّ ساعده على خصرها، قال لها:

ـ اتّكئي عليّ، وبكلّ ثقلك.. هانت.. خطوات ونصل..

ـ لكنّني أغرق في الرمال!

ـ الرمال ليست وحلاً.. يكفي، بعد وصولنا، أن ننفض أقدامنا، فإذا هي نظيفة.

ـ ولماذا كلّ هذا التعب!؟

ـ حتى تكون الراحة بعده لذيذة!!

ـ مغامرة!

ـ هي كذلك في المرّة الأولى..

ـ وهناك مرّة ثانية؟

ـ أنت ستطلبينها!

ركض سمير ليمدّ الكراسي حول الطاولة، وتولّى حنين وضع كرسيّين فوق بعضهما قائلاً لرئيفة:

ـ تفضّلي!

جلست وهي مستغربة:

ـ لماذا الكرسيّان؟

ـ الكرسي الواحد يغرق في الرمل!

تنهّدت وقالت:

ـ هذه فعلاً مغامرة..

تأمّلت ما حولها، موج البحر، عند المدّ، يكاد يصل إلى قدميها، خريره موسيقى، نسماته رهوة، السماء صافية، النجوم متفرّقة، قريبة متباعدة، الزبائن، على شكل عائلات، يتقاطرون، في البعيد، على الشاطئ تمامًا، أنوار ساطعة، هذا فندق الميريديان، بعده شاليهات، داخل البحر فلائك، قوارب، أضواء ناعسة، هؤلاء صيّادون، وفي هبّة هواء، ارتفع الموج قليلاً، فصاح به نمر:

ـ بسّ يا بحر!

وبيدٍ مسح الطاولة من قطر الندى، جاء العرق، وجاءت السلطة في وعاء كبير، ناعمة كشعر البنات، كما يريدها نمر، وجاءت الأقداح وسطل الثلج، ونصِّيّة من عرق الريّان، وجاء دور حنين لدوْزنة كلّ شيء، من السكب في الأقداح، مع الثلج والماء، إلى أصناف من المازات، وزّعها على الطاولة بمعرفته، وبعد نخب أو نخبين، صاحت رئيفة خائفة، رجل الكرسي، من ناحية البحر، غرزت في الرمل، فتولّى نمر، يساعده حنين، رفع الكرسي وتجليسها، مع نصيحة:

ـ عدم الاتّكاء بكلّ ثقل الجسم على جانب واحد..

ـ وهل أجلس بشكل مستقيم دائمًا؟

ـ ليس دائمًا.. إنّما حاولي ألاّ تميلي بقوّة على الجانب الأيمن!

لكن رئيفة فعلتها، اتّكأت بقوّة، مالت، سقطت على الرمل، خافت أن تتّسخ ثيابها، قال نمر: انفضي عنها الرمل، ترجع نظيفة كما كانت.. لكن دون لعب مع الرمل، أرجوك!

لم تُبالِ.. الغنج أنواع، وهذا نوع منه، وعرق الريّان عذب، سلس، والشهيّة جيّدة، حنين شرب كأسًا بعد كأس بعد كأس، دمدم، رفع صوته أعلى، فأعلى: «يا ماريّا، يا مسوسحه القبطان والبحريّة، عود يا زماني عود».

ـ هذه تحيّة للمعلّم!

قالت رئيفة:

ـ ولي؟

«بتسأليني بحبّك لي؟ سؤال غريب ما جاوبشي عليه!».

على غير موعد، جاء ثلاثة شباب فقبّلوا نمر، حيّوا رئيفة، صافحوا حنين، استأذنوا بالجلوس وقال أكبرهم:

ـ سمعنا، يا أستاذنا نمر، أنت هنا، جئنا بغير موعد أو إذن،

نقدّم الشكر لمعلّمنا الكبير، الذي تتلمذنا، وتتلمذت أجيال من كلّ الأعمار والبلدان على يديه.. هل يسمح أن نقبّل يديه؟

ـ قبّلوني في خدّي وهذا أفضل!

ـ هل الإقامة طويلة في بلدنا؟ أنت تحبّ اللاذقيّة كما تحبّك؟

قال آخر:

ـ يكفي أن يكون البحر هنا.. لتكون هنا، أنت، كما تقول، من اللجّة الزرقاء خرجت، لتكون سفير الماء إلى اليابسة.. صحيح؟

ـ وقلت، وتقول دائمًا، اللاذقيّة مدينتي وبحرها شراييني!

ضحك نمر وقال:

ـ وماذا بعد؟

ـ نأمل أن تقبل دعوتنا، باسم جامعة تشرين في اللاذقيّة، لإلقاء محاضرة فيها..

ـ ألقيت، في العام الماضي، محاضرة في الجامعة نفسها.

ـ بعد خمسين عامًا من الانتظار.. ولم نستطع الوصول إلى المدرّج بسبب الازدحام!

ـ لا أستطيع، الآن، إعطاء أيّ وعد.. أنا على سفر ولديّ بعض المشاغل!

ـ هل تتغدّى معنا، غدًا أو بعده..

ـ آمل قبول اعتذاري.. شكرًا ومع السلامة.

قال حنين:

ـ أحسنت التخلّص كعادتك..

ـ كي نسمع منك «أنا زارني طيفك في منامي قبل ما حبّك».

ـ لا أستطيع، والله لا أستطيع.. اعتكر مزاجي!

ـ مقطع واحد..

قال سمير:

ـ مقطع واحد.. حتى لا يبرد السمك.

دمدم قليلاً لاستعادة اللحن وغنّى:

ـ مين علّمك تتخلّص منّي؟ وأنا ذنبي إيه بتْعذّب فيّا!

وغنّى معه نمر:

«ليه العواذل حاسديني؟ دول حقّهم يبكوا عليّ؟

ومين علّمك..».

وصفّق نمر ورئيفة.. وصفّق الذين على طاولة مجاورة، فقال حنين:

ـ تبهدلنا يا معلّمي!! هات السمك يا سمير.. أنا أطعم الخانم.

قالت رئيفة:

ـ لا! آكل بيدي.. هذا ألذّ..

ـ السمك مثل النار..

قال نمر:

ـ والنار تحبّ النار..

ـ هذا صحيح والله.. لكن سمكتي كبيرة جدًّا.

ـ هذه قجاجة رائعة.. من صيد اليوم.. لا كلام على الطعام!!

ـ القهوة والفاكهة في الصالة..

ـ وفي الصالة قالت رئيفة، بعد تناول القهوة: «هل مسموح أخذ هذه الفواكه التي في «الجاط» معي إلى الفندق»؟

قال سمير:

ـ طبعًا!

وفي السيّارة قال نمر ضاحكًا:

ـ رئيفة أخذت العصفور وخيطه!

ـ ولِمَ تتركه بعد أن دفعنا حقّه!؟

قال حنين:

ـ هذا هو الحقّ والله. . اسمعوا العمّ وديع. .

ولأوّل مرّة سمعت رئيفة وديع الصافي يغنّي، والسيّارة، في هدوء الليل وبرودته، تدرج بهم عائدة إلى الكازينو. . ونمر يتساءل: هل تنام رئيفة معي. . أم في سريرها؟

ونامت معه. . عارية، حارّة، شبقة، إلى أن حلّت هذه الليلة الحمراء أوصالها. . فأغفت من فورها، إغفاءة عميقة إلى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، بينما هرع نمر إلى الحمّام، يلعن الدنيا وهو يحاول التخلّص من الاحتقان بالماء المثلج!

في الساعة السابعة كان نمر يشرب قهوته ويدخّن. . مدمن دخان ولا فائدة، قال مرّة، لمن زادوا في نصائحهم: «أطلّق زوجتي ولا أطلّق السيكارة!» حسمها! جاء حنين. المعلّم، بعد ردّ تحيّة الصباح، لاذ بصمت عميق، على عبوس في قسمات الوجه، لها، كما يعرف الذين يحيطون به، معنى واحد: اتركوني! رنّ جرس الهاتف: هذا صديقه فهيم اللّيث. جاء الفرج: زجاجة كونياك ميتاكسا METAXA اليوناني. حنين، بعد أن جلب زجاجة الكونياك، هيّأ الثلج وصحن الشيبس، كلمتان مع الجرعة الأولى. بعدهما لا كلام. هذا طقس معروف، صادر عن مزاج معروف: المعلّم صافن، يرفّ حزن مترف على مُحيّاه: «بيني وبين رئيفة فارق عمر كبير! لا تكافؤ

إذن.. خطأ كان مجيئها معي. الدرب التي حملتها إلى اللاذقيّة، ستعيدها، هي نفسها، إلى أنطاكيا!» هي لا تعرفه، تكتشفه، وهو لا يعرفها، يكتشفها، المسألة ليست تربيع الدائرة أو العكس، الجوهر مجهول معروف: جمال جسدها في كفّة، وشهرته في كفّة، هذا حدّ الحدّ، إبراهيم الخليل كان صادقًا في تقديم ابنه ضحيّة، الملاك أمسك بيده التي تحمل السكّين: «اذبح الكبش يا إبراهيم. الكبش كان الضحيّة، وعلى اسمه كانت الأضاحي، ترى من يكون الضحيّة يا نمر؟ أنت أم هي!؟» هي، بعد حمّام الصباح، خرجت مشرقة الوجه، منوّرة الوجنتين، باسمة العينين والثغر، ترتدي بنطالاً ضيّقًا، يصف امتلاء فخذيها، استدارة مؤخّرتها، فراعة قوامها، عذوبة ابتسامتها، غُنّة صوتها، وهي تصيح:

ـ سكر! ومن الصباح؟

قال حنين:

ـ نحن لا نسكر، نتذوّق الطعم فقط، من هذا السائل الخمري في هذه الزجاجة الجميلة! المعلّم هو الذي فضّ بكارتها لا أنا!

قال نمر:

ـ هذا كذب أبلق!

ـ الكذب فهمناه، أمّا كلمة أبلق هذه فتحتاج إلى قاموس!

قال نمر:

ـ ونحن نحتاج القهوة أوّلاً، والفطور ثانيًا، والخروج لأمر ضروري ثالثًا!

ـ القهوة وصلت، والفطور بعدها.. أنت تأمر معلّم!

ترشّفوا القهوة السادة، مع السكائر الحمراء، وجاء الفطور المعتاد، فقالت رئيفة:

ـ لماذا كلّ هذه الألوان؟

ـ كرمى للمعلّم!

ـ لا تصدّقي.. هذا هو الفطور المعتاد!

ـ وأنت تدفع الثمن دون أن تأكل!

ـ ولماذا لا آكل؟ فطوري عادة هذه اللبنة وهذا الشاي.. أمّا أنت لك الحرِّيَّة وبغير استعجال.

ـ وبعد الفطور إلى أين؟

ـ إلى البنك.. إنّه قريب!

قال حنين:

ـ بنك عودة أم المصرف التجاري؟

ـ بنك عودة!

ـ وبعد البنك إلى السوق . .

ـ لا! نعود إلى هنا أوّلاً .

في بنك عودة، على طريق المرفأ، دخل نمر ورئيفة إلى غرفة المدير مباشرة . . نهض المدير مرحّبًا، سائلاً عن الصحّة، وطول الغيبة، مصرًّا على تناول القهوة . . ريثما تنتهي المعاملة، والاتّصال بالمدير العامّ في دمشق، الذي قال على الهاتف:

ـ أهلاً أهلاً . . متى وصلت؟ اشتقنا . . ماذا جبت لنا معك من أنطاكيا؟

ـ زوجة صغيرة جميلة . .

ـ مبروك . . لا تتأخّر علينا . . تحيّاتنا للسيّدة زوجتك .

قال مدير بنك اللاذقيّة:

ـ ألف مبروك أستاذنا . .

ـ يا أخي أنا أمزح . . السيّدة رئيفة مديرة أعمالي، وهي عربيّة، وتحبّ اللاذقيّة جدًّا . .

ـ ذوقها في محلّه . . تفضّل امضِ . . هذا هو المبلغ المطلوب . .

وضعت رئيفة المغلّف في حقيبتها، وقالت في طريق العودة:

ـ لماذا هذا المبلغ الكبير؟

ـ كبير؟ قد نحتاج إلى مبلغ آخر!

ـ تبذّره على كيفك!

ـ وعلى كيفك..

قال حنين:

ـ على كيفنا نحن الثلاثة!

في الكازينو اتّجه نمر، منذ دخوله الصالة، إلى منصّة الاستقبال، حيث وضع في قسم الأمانات مبلغًا من المال باسمه، ووضع باسم رئيفة وجدان: ألف دولار أميركي، و٥٠٠ ليرة سوريّة، وفي غرفتهما سألت رئيفة:

ـ لماذا فعلت هذا؟ أنا لا أفهمك أحيانًا.

قال نمر:

ـ على مهل تفهمينني جيّدًا.. أنت الآن في اللاذقيّة، وأمام الناس مديرة أعمالي، هذا جيّد.. إنّما بعد يوم، يومين، ثلاثة أيّام قد لا تعجبك الوظيفة، أو لا ترتاحين إلى الإقامة معي وتريدين العودة إلى أنطاكيا، فكيف تعودين؟ أنا أمزح مع الذين يعملون معي فأقول لهم: لا تبقوا بغير سلاح! والسلاح، هنا، هو المال، الإنسان، في حياتنا هذه الأيّام، قيمته بما معه،

فالذي معه قرش يسوى قرشًا، والذي ما معه شيء لا يسوى شيئًا. . فهمت؟

قالت:

ـ دعني أقبّلك شاكرة أوّلاً، ودعني، ثانيًا، أكون فخورة بك، لأنّك بعيد النظر. . لكنْ هناك سؤال يدور في ذهني منذ وصولنا إلى الحدود السوريّة في طريقنا إلى اللاذقيّة: مَن أنت؟

ـ أنا نمر صاحب. . صحافي سوري. . أسكن دمشق العاصمة، لكنّني ابن اللاذقيّة في الأصل، هاجرت مع عائلتي من اسكندرونة عام ١٩٣٩، في نهاية شهر أيلول، وعملت أجيرًا في مهن مختلفة، ومنها حلاّق، بحّار، حمّال في المرفأ. . هل عرفت الآن من أنا!

ـ لا! لم أعرف. . هناك أشياء أخرى. . غامضة!

أضافت:

ـ ومجهولة!

قال:

ـ لا غامضة ولا مجهولة!

ـ بل غامضة كثيرًا، ومجهولة جدًّا. . أنت خطير ومحيِّر. .

قال نمر:

ـ لا خطير ولا مُحيّر. . أنا صحافي مشهور. . ومحبوب.

ـ وغير ذلك؟

ـ مدير أعمالكِ؟

ـ وزوجي. .

ـ قولي! حبيبي. . وهذا يكفي ويزيد. .

ـ لا يكفي ولا يزيد. .

نظر في عينيها مباشرة وقال:

ـ الذي يكبّر الحجر لا يضرب به. .

ـ المعنى. .

ـ لست حبيبك الآن. . ولن أكون زوجك في المستقبل!

ـ ولماذ جئت معك إذن؟

ـ نزوة امرأة. .

ـ حقيقة امرأة. .

ـ نزوة امرأة. . عابرة وقصيرة أيضًا. . كنت أعرف هذا من أنطاكيا!

ـ ولماذا لم تقله في أنطاكيا؟

ـ كان باكرًا بعد!

ـ ولماذا تتسرّع وتقوله الآن؟

ـ لأنّه في وقته..

ـ وماذا لو انتظرت وقلته بعد التجربة؟

ـ يكون قد فات الأوان!

ـ أنت، صدّقني، لا تعرف رئيفة.. ولا حبّ رئيفة.. أنت مخطئ..

ـ هذا جائز!

ـ هذا واقع..

ـ يسرّني ذلك..

ـ ألا تصدّق أنّك حبيبي؟

ـ كيف لا أصدّق؟ هل أجحد النعمة؟

ـ أيّ نعمة هذه؟

ـ نعمة جسمك!

ـ ونعمة قلبي؟

ـ ونعمة قلبك وعقلك معًا!

ـ ليتني أصدّقك!

ـ سيصدّق أحدنا الآخر.. في المستقبل!

ـ ولماذا ليس الآن؟

ـ الآن من جهتي أنا فقط.

ـ ومن جهتي فقط.. أمس، والآن، وفي المستقبل!

ـ دعيني أقبّلك..

قبّلها في خدّيها.. قالت:

ـ ولماذا ليس في فمي؟

ـ حتى تبقى شياكتك كما هي.. هيّا نخرج.

ـ من الفندق؟

ـ لا! من الغرفة.. ما رأيك بكأس يوناني؟

ـ أريد كأسًا سوريًّا.. سوريًّا فقط..

قال:

ـ فليكن كما تريدين..

وقال في نفسه:

«كما تريدين أنتِ.. لا كما أريد أنا»!

ـ ١١ ـ

نازك رجمان سيّدة لطيفة، على قدر من الملاحة والوسامة، لا تريدها رئيفة، ولا ترتاح لوجودها في قاعة مطعم الفندق، ولو كان الأمر بيدها، لصرفتها من الخدمة نهائيًّا!

سألها السائق فضل:

ـ أنت متأكّدة ممّا تقولين؟

ـ الأنثى تعرف الأنثى جيّدًا!

ـ والأنثى لا تحبّ الأنثى كما يقولون!

ـ هذا صحيح أحيانًا، وليس دائمًا!

ـ هناك الغيرة يا نازك.

ـ لو كان هناك حبّ، أو رغبة في الحبّ على الأقلّ!

أشعل فضل سيكارة، أشعل واحدة لها أيضًا، تأمّل وجه نازك، راقت له، سألها:

ـ لماذا طلّقك زوجك؟

ـ أنا التي طلّقته!

ـ والسبب؟

ـ دون سبب!

ـ هذا لا يصير.

ـ صار! ولماذا تبحث عن السبب؟

ـ حشريّة منّي!

ـ في خصوصيّات غيرك!؟

ـ إذا كان هناك ما لا يُقال لا تقولي!

ـ لن أقول في الحالين!

ـ وأنا لن أساعدك في الأحوال الثلاثة!

نهضت نازك متذرّعة بدخول أحد النُدُل، إلاّ أنّ النادل خرج إلى الشرفة، دون أن يلتفت إلى نازك ومَن معها، فقال السائق فضل:

ـ أنا أيضًا لديّ شغل، سأعود إلى «سمان داغ» السويديّة، هل نلتقي غدًا؟ وفي أيّ وقت؟

ـ غدًا إجازتي.

ـ وبعد غد؟

ـ سأكون مشغولة. . لدينا حفلة، هنا في الفندق.

ـ حفلة غداء؟

ـ غداء أم عشاء كلّه واحد. . هذا ما يعرفه مدير الصالة لا أنا!

ـ وعلام هذا الجفاء؟

ـ لأنّك، يا فضل، تتدخّل في ما لا يعنيك.

ـ بل يعنيني جدًّا. . السيّد نمر لا يُخفي عنّي شيئًا!

ـ وما سبب هذه العلاقة؟

ـ هذه الصحبة. .

ـ علاقة أو صحبة، لا فرق!

ـ بلى! هناك فرق!

ـ ما هو؟

ـ هذا سرّ. .

ـ وأنا بئر عميقة!

ـ لكن على شرط. .

ـ اشرط كما تريد. .

ـ مع ذلك لن أقول. . أخاف أن يعرف مدير الفندق.

ـ إذن دع سرّك في بطنك. . ومع السلامة.

ـ تطردينني يا نازك!؟

ـ السيّدة نازك من فضلك!

ـ يا سيّدة نازك!

ـ نعم!

ـ أنا ذاهب. .

ـ مع ألف سلامة!

وقف. . سار خطوات. . عاد وقال في شبه همس:

ـ الاتّفاق لصالحنا نحن الاثنين. .

أثار فضل لدى السيّدة نازك رغبة في المعرفة. . تعرف أنّه سائق السيّد نمر، وتعرف أنّ السيّدة رئيفة تأتي ليلاً إلى جناح هذا الأخير في الطابق الرابع، فهل تبقى عنده؟ تقضي الليل معه؟ تنام ليلاً وتنسلّ، خفية، في الصباح الباكر؟ كلّ هذه الأسئلة يعرف جوابها السائق فضل، وفضل يقول هناك مصلحة إذا اتّفقت معه، فعلى أيّ شيء تتّفق؟ وما فائدة هذا الاتّفاق؟ ابتزاز رئيفة؟ وبماذا يبتزّها؟ يرغمها أن تكون له؟ وإذا كان لا يريدها هي بل المال الذي معها، فمن أين هذا المال؟ من

معلّمها نمر؟ يقال إنّه غني، ويتكلّم اللغة التركيّة أيضًا، وهذه أوّل مرّة يأتي إلى أنطاكية.. فماذا جاء يفعل؟ تاجر؟ مهرّب؟ من جماعة الممنوعات والعياذ بالله! المسألة مثيرة، لكن غير مفهومة.. نازك حذرة، سكّة السلامة أوّلاً، تتخلّص من السائق فضل بعد معرفة السرّ، أم تترك الدخول في العتمة معه!؟

نفد صبر فضل.. راح وجاء.. دخل المرحاض، خرج يتمشّى في الرواق، أمام صالة المطعم، ولمّا عاد سأل:

ـ اتّفقنا؟

ـ اترك المسألة حتى أفكّر فيها جيّدًا! أنا لا أسعى إلى كسب المال!

ـ أنت تريدين معرفة السرّ.. ودون مقابل!

ـ وما المقابل الذي تريده؟ اسمع! أنا امرأة شريفة.. لا يذهب فكرك إلى سرداب.. مطلّقة صحيح.. ولكن لحمي مرّ.. إيّاك والظنّ أنّني أخاف! جرّب غيرك فحصد الريح.. قل ما تريد بسرعة.. ماذا بشأن هذه السيّدة التي تسعى إلى ابتزازها؟ تهدّدها بماذا؟

ـ بفضحها!

ـ تقول إنّها عاهرة؟

ـ ولها تاريخ طويل عريض..

ـ في العهر!؟

ـ وفي أشياء أُخرى!

ـ مثل ماذا؟

ـ وإذا قلت لك، بماذا أنتفع أنا؟ عندنا مثل معروف: «الخروج من المولد بلا حمّص..».

ـ وأيّ حمّص تريد منها أو منّي؟

ـ أنت غبيّة يا نازك!

ـ وأنت عرص يا فضل..

ـ سنلتقي..

ـ إلى أن نلتقي يفرجها الرحمٰن!

من المؤكّد أنّ الرحمٰن لا يرضى بهذا التآمر، والفرج المنتظر منه لن يكون فرجًا راضيًا مرضيًّا، «ليس للإنسان إلاّ ما سعى، وأنّ سعيه سوف يُرى»، والسعي المبارك غير التآمر الملعون، والسيّدة نازك رجمان لا تأمل بمال، فما يعطيها نمر يكفي، وهو يعطيها بطريقة لبقة، فيها نُبل وذكاء، يضع، مثلاً، في منفضة السكائر، محرمة مدعوكة، تخالها مستعملة، وهي ليست كذلك، وقبل أن تُفرغ ما في الصحن في وعاء الزبالة، ترفع المحرمة، تبقيها في يدها، وفي الحمّام، الممشى، على الشرفة، تفتح المحرمة وتأخذ ما فيها، دون أن تلحظ رئيفة

شيئًا، وبعد الطعام، في الوجبات الثلاث، يُعطي مدير المطعم ما تبقّى من نقود في الصحن، أو يضع فوقها أيضًا، كرمى له وللسيّدة نازك، والتي صار مدير المطعم واثقًا من ميله إليها، وإيثارها في تلبية ما يطلب، أو ارتياحه لأنّها تقف قريبًا من مائدته، على استعداد لتقديم خدماتها له بسرعة.

هل كان يعطيها، ولو جزءًا بسيطًا ممّا يأخذه، كي يدوم ما يأخذه؟ هذا وارد، ووارد أيضًا أنّه في استواء الرجولة، وهي، نازك في الآن الذي تكون فيه المرأة في عزّ نضوجها، ونقطة البيكار، في كلّ هذا، رئيفة ونمر، والعلاقة الغريبة بينهما، كونه في الشيخوخة، وهي في أرذل العمر، وكونها في ميعة الصبا، ذات قوام فارع، وجسم متّسق، ووجه صبوح، ونهدين صغيرين، وزندين عاريين مغريين جدًّا!

السائق فضل يزعم أنّه هو من دبّر الموضوع كلّه، وأنّ بقاء رئيفة مع نمر، في جناح واحد، وربّما سرير واحد، كان مستحيلاً لولا أنّه علّمها كيف تصعد إليه خفية، وتبقى عنده خفية، وتنام معه خفية. وهذا، في كلّ حال، ومهما يكن التقدير، يعود الفضل فيه إليه، ولقاء ذلك من حقّه أن يكون له نصيب في هذه الكعكة، قضمة على الأقلّ، فجزاء الإحسان لا يكون إلاّ إحسانًا، من أيّ نوع، والنوع المفضّل والمطلوب هو المال، الآن وليس غدًا، ففي الغد، بعد سفر هذا الغريب، ربّما

توصّل، بأيّ وسيلة، إلى شيء غير المال، من «هذه القحبة» التي أغوت هذا الغريب، الغني كما يبدو، وإلاّ لما باعته جسدها الفتي!

هناك عسل، والذباب يُقبل عليه من كلّ صوب، إنّه طبق لذيذ، إلاّ أنّ الطبق في الثلاّجة، فماذا يفعل الذباب والطبق في الثلاّجة؟ يحوم في فضاء المكان، بانتظار خروج هذا الطبق نهارًا، ما دام الليل في غير صالحه؟ خيبة، والخيبة تُعالج في ليل، والخائبون الثلاثة: فضل، نازك، ومدير المطعم، لم يتصارحوا بعد حتى يتفاهموا، وقد لا يتفاهمون إذا تصارحوا، ما دامت الغاية ليست واحدة، وكلّ واحد ينظر إلى الأمر من زاويته، فنازك تحبّ نمر، ومدير المطعم يحبّ، أو يستدرج، نازك إلى حبّه، وفضل يسعى إلى المال أوّلاً، وإلى نيل رئيفة ثانيًا، أي بعد سفر هذا الغريب!

رئيفة وحدها كان الغنم لها، والغرم من نصيب الثلاثة الباقين. نازك لم تبلغ أن تحلّ محلّ رئيفة، لكنّها كسبت ما كانت تصبو إليه، وهو حبّ نمر، عبر الرسائل المتبادلة، من وراء ظهر العاهرة التي خدعته بجسدها. «حب الروح لا نهاية له، لكن حبّ الجسد فاني» ورئيفة لم يكن لها إلاّ جسدها، فراحت، ببراعة عاهرة مدرّبة، تتملّق نمر وهو معها في سرير واحد. . ونمر أغضى على لعبة الجسد هذه، بل افتتن بها،

مصغيًا إلى موسيقى لم يسمعها من قبل، موسيقى فحيح الأفعى في سريره، فانقاد لها، هو البصير البصير، كالضرير الضرير، قائلاً في نفسه: «كشفت لها بصراحة تامّة، ما أُعاني من قصور في جسدي، فبكت رئيفة بكاءً مرًّا، وأصرّت على البقاء معي، وهذا الذي كان، إلاّ أنّ الشكّ لم يزايلني، فلست أنا من تخدعه امرأة رخيصة، لكنّني، أنا أيضًا، إنسان، ومحروم، و«التفّاحة» المُباركة، بكلّ لذاذاتها، طوع فمي وأناملي، ولن أخسر، إذا خسرت، إلاّ أشياء مادِّيَّة، لا قيمة لها عندي، لكنّها ذات قيمة كبيرة جدًّا عندها، هي المحرومة من كثير من الكماليّات الترفيهيّة، في حياتها وسعيها وراء الرغيف».

أسرّ في نفسه أيضًا: «هرقل أسكرته خدعة الجمال، قبل شمشون، بالهوى الشرّير» إلاّ أنّ شمشون انتقم «عليّ وعلى أعدائي يا ربّ!» قال، فانهار المعبد على من فيه، من أعدائه وحسّاده، وراح، هكذا، ضحيّة خدعة سافلة من دليلة، وكل امرأة، في صلبها، من دليلة، عَقَبُ، وقاسم أمين، نصير المرأة بإطلاق، في مصر، لم يأخذ في حسابه أنّه ليس من شيء مطلق في هذا الوجود! وأنّ الحبّ، في عماه، تسامح، والمرأة، وكذلك الشعب، لا يجوز التسامح معهما على الجهل والتخلّف والخرافات، فهذا كلّه ليس من التربية، والمرأة تحتاج إلى من يكشف لها أخطاءها، إلى من يصحّح تربيتها، والأمر ذاته مع الشعب.

هذه ليست إلاّ افتراضات، قد تكون في محلّها، أو هي نابية عنه، فكيف العمل للتفريق بين نمر ورئيفة، والحيلولة دون سفرها معه، تحت ستار شفّاف، لا يخفي حقيقة أنّها عشيقته، لا مديرة أعماله!؟

في المطعم سألته نازك، عندما كانت رئيفة تنتقي ما تحبّ أن تأكل على الغداء: «هل الخانم زوجتك؟» أجابها: «لا ليست زوجتي، إنّها مديرة أعمالي» مديرة أعمال تركيّة، لا تعرف العربيّة إلاّ كلامًا، بماذا تنفع هذا الرجل الغني، في بلاده العربيّة؟ الجواب واضح: «تنفعه كعشيقة فقط لا غير»، إذن لماذا تكون هي لا أنا، قالت نازك في بالها؟ «النساء لُعَبُ الرجال» ونازك وضعت في رأسها أن تكون لعبة نمر بدلاً من رئيفة، أن تجتذبه إليها برسائل صغيرة، تدسّها في يده، تضعها تحت صحنه، في المطعم، تتوصّل إليه باللقاء معه خارج المطعم، تدعوه إلى تناول القهوة معها في أيّ فندق، فإذا راقته، إذا مال إليها، أحبّها كما تحبّه، هناك بيتها، وهناك غرفة عند صديقة لها، واختصارًا هناك غرفة في فندق مديرته امرأة من معارفها.

نازك رجمان ليست عاهرة مثل رئيفة، لن تنام معه حتى الصباح، لن تخدعه بإخفاء ما في ماضيها من طلاق، وما تتعرّض له المطلّقة من مضايقات، أو من هفوات عابرة،

ستصارحه بحبّها، أحبّته لكرمه، لشهامته، لحسن تصرّفه، وللكلمات الغزليّة اللطيفة في رسائله القصيرة جدًّا إليها، وهي، نازك، لا تريد منه شيئًا، ولن تعرض عليه أن تعمل معه، كلّ ما في الأمر عداء امرأة لامرأة. رئيفة استصغرتها، عاملتها بتشوّف، ودون كلام أشعرتها أنّها خانم، وهي ليست إلاّ خادمًا في مطعم، دورها أن تقدّم للخانم ما تطلبه، أو ما يطلبه مديرها، الذي تُريد إفهام الآخرين خداعًا أنّه زوجها لا عشيقها.

نجحت الخطّة تدريجيًّا، التقت نازك بنمر، راق لها، راقت له، لم تتبذّل معه، لم تسلّمه نفسها من اللقاء الأوّل، كانت ممتعة، دافئة، عفيفة، قالت له: سأكون بانتظارك دائمًا، وإذا وجدت مناسبًا أعمل معك، أكون زوجتك بغير زواج، أنا لا أهتمّ بورقة يكتبها شيخ، أفضّل الزواج المدني.. وعندما سألها عن رئيفة قالت: «لا أعرف شيئًا عنها، ولم أرها إلاّ في المطعم معك!».

من جهة أخرى تلقّى نمر أكثر من هاتف في اليوم: «هل تعرف هذه العاهرة التي معك؟» «اسألها عن أصلها، عن عائلتها، عن السبب الذي دفع زوجها للطلاق منها» «احذر أن تصدّقها، أن تأخذها معك، أن تتركها تتصرّف بأموالك أو ممتلكاتك من أيّ نوع!» «لا تقل لها كلّ ما في قلبك، لا تدعها تطمع بك» «هل تعرف عدد الرجال الذين ارتمت في أحضانهم

قبلك؟» «هذه العاهرة لم تقطع علاقتها بطليقها بعد».

ومثلما كانت الهواتف تصل إلى نمر، كانت تصل إليها . . كانت هناك شتائم، تحذيرات، وكان هناك فضل الذي يطلب منها، بذرائع مختلفة، بعض المال، على دفعات، لشراء البنزين، أو إصلاح الإطار، أو شدّ الكوابح، دون أن تقول ما يجري معها لنمر، كيلا تفضح نفسها، أو تجعله يعرف، أكثر ممّا عرف، عن حياتها قبل لقائها به.

اللعبة مزدوجة، تجري خفية، لكن ليس من خفيّ إلاّ ويظهر، وحتى يظهر، مستقبلاً، هذا الخفي، تكون الوقائع تبدّلت، جسم نازك ليس أقلّ جمالاً واتّساقًا من جسم رئيفة، وماضي رئيفة سينكشف بكلّ عيوبه، وعندما يعود هذا الغريب الثري إلى أنطاكيا، في يوم من الأيّام، لن تكون هذه المرأة مديرة أعماله، عندئذ يأتي دور نازك، التي ستلعب هذا الدور على مسرح حياته بإتقان، وإخلاص، وحبّ حقيقي، قد يصل، أو يفضي، إلى زواج مدني، أمام الملأ!

هناك، بعد هذا كلّه، إكمال. رئيفة هذه، إذا ما قُدِّر لها أن تسافر مع نمر، وإذا ما كانت تبني حسابها على البعد، في أيّ بلد من سورية، حيث يخلو لها الجوّ، فإنّها واهمة. . السائق فضل يلهث وراء الكسب، ونفسه لا تعفّ عن كريهة، ونازك

تعرف كيف تغريه ببعض المال، وبعض الدلال الأنثوي، مقابل أن يأتيها برقم هاتف رئيفة الخليوي، وكيف استطاعت هذه أن تكسب ثقة مدير أعمالها، وهل يعتقد هذا المدير، هنا أو هناك، في أنطاكيا أو في سورية، أنّها تنفعه كمديرة أعمال، أم أنّ العلاقة بينهما، علاقة رجل بامرأة فقط، وفي هذه الحال كيف تدبّرت مسألة الجنس بينهما، هي الصبيّة وهو العجوز؟ هناك الفياغرا، إلاّ أنّها غير كافية، وهناك أنواع من العلاج تُفيد الرجل المتقدّم في العمر، للقيام بواجبه الجنسي، وإرضاء حتى المرأة الصبيّة التي معه في السرير، إنّما لهذه العلاجات محاذير تتعلّق بالقلب، والإجهاد الجسدي، وعدم التكرار، والكفّ بعد الانتصاب، والسرعة، أو البطء في القذف، وكلّ ما يعرفه ويشرحه الأطبّاء النفسيّون المختصّون، الذين لجأت إليهم نازك يوم كان زوجها المرحوم حيًّا، يشكو من البرود الجنسي أو حتى العُنّة أحيانًا!

لم يكن السائق فضل، ومهما كانت إغراءات نازك، بقادر أن يُفيدها في هذا المجال، لأنّه شبه أُمّي في هذه المسائل، ولا يجرؤ أن يتكلّم عليها مع معلّمه نمر، أمّا رقم الهاتف الخليوي، الذي جاءها به، فلم يكن الحصول عليه صعبًا، ولم يحصل كمقابل إلاّ على مبلغ بسيط جدًّا.

«لا تدينوا كي لا تُدانوا» رئيفة «خانم»، تعالت، تشوّفت،

استهانت بنازك العاملة في مطعم الفندق، ونازك انتقمت منها على نحوٍ منهجي، وظلّ الفارق، الذي سيُستعلن لاحقًا، بين الامرأتين المتكايدتين، وقفًا على الدهاء، إذا نحّينا مسألة الحبّ غير الحقيقي، لأنّه حبّ غير متكافئ أصلاً، جانبًا.

أمّا في اللاذقيّة، فإنّ رئيفة التي عرفت مغامرة الرمال المتحرّكة، فإنّها عادت من مطعم جواد وهي سعيدة، متعجّبة عجبًا لا حدّ له، من رفعة مكانة نمر، شهرته، كرمه، لفتته الذكيّة، بفتح حساب خاصّ بها في أمانات فندق القصر، كي يكون في وسعها، إذا لم ترق لها الحياة معه، أن تعود إلى بلدها. كاسبة، غانمة، كريمة مكرّمة، غير مدركة أنّ وظيفتها المدّعاة، كمديرة أعماله، لم تقنع أحدًا، لأنّها لم تكن حقيقيّة حتى تقنع، وأنّ جسدها هو المشتهى، وهو المطلوب والمرغوب من قبل مديرها المدّعى أيضًا، وأنّه يعرف من هي، ومن كانت، وماذا تريد، وما هي مطامعها، وقد قبل بها على سبيل التجربة، عسى أن تتوب، أن ترجع عن غيّها، أن تسلك، وهي في سورية، السلوك العاقل، اللائق، ولها الحرِّيّة، في زياراتها إلى أنطاكيا، أن تستتر، إذا ما ارتكبت معصية ما، عملاً بقول غرامشي، فيلسوف إيطاليا الفذّ «وفاء الروح وخيانة الجسد» إدراكًا منها لمستقبلها، الذي نذر نمر أن يضمنه، في حياته ومماته، ضمانة تقيها العَوَز، أو الرجوع إلى مزاولة

تجارتها الناحلة، وما فيها من أذى لكرامتها، وضرر لصحّتها.

إلاّ أنّ الذي في الغيب، على جنف، أحيانًا، مع النوايا، ونمر لا يثق بالنوايا، لأنّ جهنّم ملأى بأصحاب هذه النوايا، الحسنة منها والسيّئة، وفي هذا إضمار، والمضمر غيبًا، يظلّ في الغيب، خيرًا وشرًّا على السواء.

ـ ١٢ ـ

رئيفة تتحرّك بحذر، تتملّق باتّزان، تتفاجأ، كلّ يوم، بجديد مدهش، من المكانة غير العاديّة، التي يحتلّها نمر في قلوب وعقول الناس، الذين يحبّونه، يقدّرون نضاله، لا ككاتب فقط، بل كمناضل وسياسي خرج من رحم الشعب، من نبت تراب الوطن، ليكرّس حياته دفاعًا عن هذا الوطن، وهذا الشعب، ولنصرة الفقراء إخوته ورفاقه، في مسيرة حياته الطويلة والشقيّة معًا، دون أن ينسى، كسواه، هؤلاء المعذّبين الذين رافقوه، ونصروه كما نصرهم، في الشدائد والنوائب، وأيضًا في السجون والمنافي، وما أكثرها وأقساها!

والد نمر كان سكّيرًا، رحّالاً على الدوام، لا أحد يدري لماذا يرحل، وما هي غايته من الرحيل، وحتى زوجته كانت، رغم أسئلتها ولجاجتها، لا تحظى بجواب مقنع، فإذا ألحّت ضربها، لأنّه صاحب رأي غريب في المرأة، ومن أقواله: «إذا

لم تضرب المرأة اضرب خيالها»، والسبب في غرابة هذا الموقف يعود، ترجيحًا، إلى أنّه يحفظ مجراويّة الزير سالم، ويكره، من أعماق روحه، جليلة امرأة كُليب، الذي قتله غدرًا أخوها جسّاس، فراحت تسعى إلى إتلاف الزير، هلاكه، حتى لا ينتقم من أخيها جسّاس، والبيت الذي يحفظه ويردّده من هذه المجراويّة «من النسوان بالك ثم بالك/ ولو قالوا نزلنا من السما!» وكان، إلى ذلك، صاحب حكمة تقول: «الدهر دولاب، لا عمّك ولا خالك» «ولا تأخذ الناس على مقاسك تتعب» و«لا يشيل هذه الأمانة إلاّ الذي حطّها» يقصد روح الإنسان، و«لا تخف من الموت، تجعله يسرع إليك» ويقول لابنه نمر «أنا لا أفهمك» فيجيبه نمر «وأنا لا أفهمك أيضًا» فيجيبه مبتسمًا «إذن تساوينا» فإذا عرّض به أحد قائلاً: «الشوكة تخلّف وردة!» ردّ بغير انزعاج «لولا الشوكة ما كانت الوردة» فإذا خلا بابنه قال له «لا تكن ثعلبًا تأكل من فضلات السباع، كن سبعًا تأكل الثعالب من فضلاتك!».

بيد أنّ والد نمر كان رخوًا أمام الكأس والمرأة، فلم يستمتع بالكأس ولا حَظِي بالمرأة، فجاء نمر على عكس والده، لا يسكر، لا يحبّ، ولم يكن، في هذا المسلك المخالف، قصديًّا، متعمّدًا، لائذًا بالرفض اعتمادًا على قوّة الإرادة، بل هو كذلك، لأنّه كذلك، كما كان يقول في كلّ خلوة مع نفسه، وهذه الطيبة فيه جعلته قويًّا، متفرّدًا عن صحبه، يشرب إلى أن

يرفض جسده المزيد، شبقًا لا يرفض المرأة ولا يلهث وراءها، وليس بينه وبين الخمرة والمرأة شعرة معاوية التي لا تنقطع، فهو حاسم في قطع هذه الشعرة ساعة يُريد، وكثيرًا ما اعترف، أمام الناس وأمام نفسه، ألاّ وقت لديه يقضيه في المفاوضات الغراميّة، ولا ميل عنده للبحث «عن خمّارة البلد» قيلة أبي نؤاس.

قبل رئيفة كانت رئيفة ورئيفة، وذاكرته التي لا تنسى حتى الفاصلة، شاهد على أنّه ما انفصل عن امرأة، إلاّ وبقيت له معها نفحة ودّ، وما عرف الصدق في المعاشرة مع رئيفة، إلاّ في الأيّام العشرة الأولى من اللقاء بها، وبعد ذلك بدأ الانحدار في العاطفة من جهتها، وراح درجة بعد أخرى، يواصل انحداره، ونمر يعرف هذا، يرصده، يتابعه، قائلاً في نفسه: «الزنى ليس في نقطة أسفل البطن للمرأة، الزنى في أخلاقها» يُضيف: «نحن في الزمن الرديء، وهذا ينتج، تلقائيًّا، ناسًا أردياء» وقبل نحو عشرين عامًا، كتب، في دفتره الخاصّ، هذه الملاحظة: «الخلق وضعوا الشرف على الرفّ»..

بعد الأيّام العشرة الأولى في أنطاكيا، انتهى «زمان الوصل في الأندلس» تعرّفت رئيفة على زوجة نمر المقعدة تقريبًا، عاملتها بودّ خالص، كانت تناديها «ماما» والزوجة تقول لها «يا بنتي» وفي اللاذقيّة، بعد تحسّن صحّة الزوجة، رئيفة هي التي

اقترحت أن تذهب «الماما» في السيّارة الخاصّة إلى مصيف صلنفة، ومصيف كسب، ومن اللاذقيّة ذهبت، برغبة حارّة، إلى دمشق، فاستُقبلت بترحاب حارّ من بقيّة أفراد الأسرة، وبعد شهرين أو أكثر، ذهبت رئيفة إلى أنطاكيا، لتعود رئيفة أخرى، كلّ حركاتها، كلّ تصرّفاتها، تبدّلت، وصار جمع المال، حيازته بأساليب مختلفة، الاستيلاء على أثمن نفائس البيت، توضيبها في حقائبها، مثار اهتمامها الأوحد، وصار السفر إلى أنطاكيا، والعودة منها إلى دمشق، مكّوكًا لا تهدأ حركته، ونمر الذي لا يبخل عليها بمال، أو بشراء كل ما يلزمها من ثياب أو لوازم «الخانم رئيفة» باهظة الثمن، يُراقب كلّ شيء، ويأسف لأنّ «حليمة رجعت إلى عادتها القديمة». وكما أسلمته جسدها من الليلة الأولى للقائهما، في فندق أنطاكيا الكبير، تعود لتسلّم جسدها بالطريقة نفسها لمن يدفع، أو لمن يروق لها من الرجال العرب أو الأتراك، في بلدها الأوّل.

هادئ نمر، واثق نمر، صبور نمر، إلى أن اكتملت عدّة هذه الأمور، وعندئذ انقلب كما انقلبت «السنّ بالسنّ والبادئ أظلم» أمّا العين «وما تخفي الصدور» فلم تعد خافية، مديرة الأعمال عاهرة، وعاهرة تجهل فنّ العهر «وأخذ على عاتقه أن يعلّمها هذا الفنّ، وعلّمها» إيّاه رويدًا رويدًا، قال لها:

ـ يا رئيفة! أنا أعرف كلّ شيء عنك، كما تعرفين، أنت،

بعض الأشياء عنّي، ولم يكن من اللائق، أن تتّخذي من السائق «ن» أمينًا لسرّك، وأن تقولي له نمر هذا عجوز!

ـ وماذا في ذلك؟ أنت لا تُخفي هذا عنّي أو عن سواي.

ـ إذا كنت لا أُخفي هذا، وإذا كان بعض الناس يقولون لي «أنت تكبّر سنّك!» فأبتسم لهذا الإطراء المجامل، فإنّ السائق «ن» استنتج من كلامك أنّني حاولت ممارسة الجنس معك ففشلت، وأنّك تخدعيني في هذا، وتصبرين لأجل الحصول على المزيد من المال، والمزيد من اقتناء الأشياء الثمينة التي تحشين بها حقائبك.

ـ السائق «ن» يكذب! . .

اندفع السائق من الغرفة التي هو فيها إلى الصالون صائحًا:

ـ أنا لا أكذب. . للمعلّم فضل عليّ، ويجب أن يعرف أنّك هنا للحصول على المال والأشياء الثمينة، وبعد ذلك ترحلين. . هذا هو هدفك يا ماكرة. .

صاحت به:

ـ اخرج من هذا البيت. .

ـ هذا ليس بيتك حتى أخرج منه!

ـ أنت، في غياب المعلّم، تتذمّر، وتقول إنّك ستترك العمل عنده!

ـ هذا صحيح. . سأترك العمل، سأتركه وأنا مرتاح الآن، بعد أن فضحتك!

تدخّل نمر قائلاً:

ـ لا لزوم لهذا كلّه. . أنا أعرف رئيفة وأعرفك. . هذا هو حسابك كاملاً!

ـ أنا أستحقّ حسابي بعد ستّة أيّام أخرى!

ـ وأنا أُعطيك حسابك كاملاً بغير انتظار الأيّام الباقية. . هذا حسابك كاملاً، وهذه قبلة من أب لابنه. .

أخذ السائق حسابه، وقبل الخروج من الباب التفت وسأل، مشيرًا إلى رئيفة:

ـ وهذه!؟

ـ لا علاقة لك بها. . مع السلامة!

قالت رئيفة بعد خروجه:

ـ تعطيه حسابه كاملاً، وتقبّله فوق ذلك؟

ـ هذا من الأصول يا رئيفة. .

ـ هذا ليس من الأصول. . إنّه مكافأة على شتمي أمامك!

قال نمر بهدوء:

ـ هوّني عليكِ يا رئيفة.. إنّه لم يقل جديدًا بالنسبة لي.. كنت أعرف كلّ شيء..

ـ وماذا تعرف؟ أنّني عاهرة؟

ـ ليت هذا فقط.. كنت أعرف، منذ البدء، لماذا جئت معي إلى اللاذقيّة، ثم إلى دمشق.. ولماذا سافرت معي إلى الشارقة في الإمارات.. المال لا شيء، والمال كلّ شيء.. ألم تقولي إنّ قارئة الفنجان قالت لك قبل أن ألتقي بك «يا رئيفة أمامك حظّ كبير!».

ـ نعم قالت هذا!

ـ وماذا أيضًا؟

ـ هذا فقط!

ـ لا! أضافت «لكن هذ الحظّ سيضيع منك!».

ـ أنا لا أُبالي إذا ضاع أو لم يضع!

ـ هذه مسألة متروكة للمستقبل.. أنت أهنتني كثيرًا!

ـ وقصدت هذا!

ـ بعد أن نلت منّي ما تريد!

ـ نعم! في الأيّام العشرة الأولى التي قضيناها معًا في فندق أنطاكيا الكبير، وبعد ذلك صار بيع وشراء! أنتِ بعتِ وأنا اشتريت..

ـ هكذا إذن؟

ـ بالتمام والكمال. .

ـ كنت لك. . ومع ذلك اغتصبتني بشكل قبيح!

ـ لا أنكر. . بدأت في العاشرة ليلاً وبقيت إلى الرابعة صباحًا. . كان هذا ضروريًّا كي تعرفي أنّ العجوز الذي حسبتِ أنّك تضحكين عليه، كان يضحك، بدوره، عليكِ. . استمتعتُ بك كثيرًا. . ثم اغتصبتك عقابًا. . قلتِ وقد أوجعتك: «هل أَخذت علاجًا؟» وأجبتك فورًا: «نعم أخذت علاجًا. . وماذا في ذلك، ابن الأربعين عامًا يأخذ علاجًا هذه الأيّام!».

ـ فعلت هذا لقهري؟

ـ لا! ليس لقهركِ. . إلاّ أن الجزاء من الفعل نفسه!

ـ وبهذه الطريقة الوحشيّة؟

ـ هذا درس، لكنّه، لحسن الحظّ، لن يُفيد، ولن يتكرّر. .

ـ وإذا قلت لك إنّني، رغم كلّ ما جرى، أحبّك؟

ـ أعرف ذلك دون أن تقوليه. . أنت، في البدء، أدهشَتْكِ شهرتي، لكنّ الشهرة ومضة برق سريعة، بعدها تأتي مسألة اللذّة والألم، هذه ليست نظريّتي، إنّها نظريّة عالم عربي قديم اسمه أبو بكر الرازي «هذا العالم قال إنّ البطن يجوع فتتألّم، وكي

يزول الألم نأكل فنستلذّ، وتتكرّر مسألة جوع البطن وشبعه.. الشيء نفسه بالنسبة للجسد.. الشهرة لا تستطيع أن تكون قضيبًا، كي تسكت ألم الجسد.. أنت بحاجة إلى رجل له (...) الحبّ، يا رئيفة، لا يتغذّى إن لم يكن شهوانيًّا!

ـ فهمت.. ومع ذلك أحبّك!

ـ وهذا الحبّ غير ثابت.. إنّه يتأرجح.. ستذكرين شهرتي، ومعها ستذكرينني..

ـ شهرتك فقط؟ وكرمك؟ ولباقتك، وغزارة معرفتك!؟

ـ أنا أتوقّف عند الشهرة.. هذه ميزتي.. أمّا الأشياء الأخرى فإنّها موجودة عند غيري، وربّما بشكل أفضل!

بعد الظهر، نامت غير عارية، إلى جانب نمر في سريره، وضعت ذراعها تحت رأسه، وبعد صمت قصير، رفعت فخذها، كما تفعل المرأة مع زوجها، واستدارت نحو قائلة:

ـ ألا أُضايقك وفخذي التي تحبّها تسترخي فوقك؟

ـ لا تضايقني وأنت تعرفين هذا، إلاّ أنّها لا تستثيرني كما في السابق وهذا ما يجب أن تعرفيه!

ـ فخذي الجميلة، الممشوقة على امتلاء، والتي كنت تعانقها وتقبّلها لم تعد تستثيرك؟

ـ لا!

ـ بلى! تستثيرك.. أنا امرأة والامرأة تعرف ذلك بإحساسها.

ـ الامرأة المجرّبة مثلكِ تعرف ولا شكّ، لكنّ الرجال مثل أصابع اليد أحيانًا.

ـ كلّهم مع جسد المرأة سواء.. ألست رجلاً أنت؟

ـ أنا رجل عجوز!

ـ لا عجز مع العلاج الرهيب الذي استعملته معي.

ـ وندمت على ذلك!

ـ ندمُك كان بسبب علّتكَ التي حدّثتني عنها في أنطاكيا، وبكيت لأجلك!

ـ كان ذلك في الأيّام العشرة الأولى.. يوم كنتِ بحاجة إليّ، وبعد ذلك لا حزن ولا بكاء.. لدينا في الشعر العربي هذا البيت: «صلّى وصام لأمر كان يطلبه/ لمّا انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما» هذا ينطبق عليك.. وعلى امرأة رفعتها من الوحل فعادت إلى الوحل مثلك!

ـ أنا، كما تعرف، لا أفهم اللغة العربيّة الفصحى، والشعر الفصيح خصوصًا!

ـ لكنّك تعرفين الصلاة والصوم!

ـ نعم! أعرفهما، وأعرف المعنى المقصود منهما.. لكنّني أحبّك صدّقني.

ـ هذا كلام تكرّر كثيرًا.. فماذا وراءه الآن؟

ـ وراءه الذي تريده أنت.. هل أتعرّى؟

ـ لا! على لسانك قول.. فما هو؟ ودون لفّ أو دوران!

ـ أريد أن أرتاح، وكي أرتاح قل لي بصدق: الذي قاله السائق «ن» كان صحيحًا؟

ـ مئة بالمئة!

ـ وأنا كاذبة مئة بالمئة؟

ـ في الجواب: نعم! وفوق ذلك عاهرة بالعدد نفسه!

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنت غشيم بالقدر نفسه.. كيف تصدّق أنّني في بيتك لأحصل على مالك، وعلى أشيائك الثمينة، دون أن تطردني، وتستعيد كلّ ما في حقائبي من هذه الأشياء؟ هنا التناقض الذي يحيّرني.. بكلمة: أنت مغفّل أم حمار!؟

ـ أنا داهية!

ـ الداهية لا يترك امرأة تسرقه!

ـ وإذا كنت أريد أن تسرقيني؟

ـ وماذا تكسب من ذلك؟

ـ هذا ستعرفينه مستقبلاً أنت!

ـ وإذا لم أعرفه؟

ـ لا أخسر شيئًا!

ـ بلى! ستخسر. . أنت تجهل كيد المرأة. .

ـ لكنّني أعرف المثل الذي يقول: «كيد الرجال هدّ الجبال، وكيد المرأة هدّ الرجال!».

بعد أيّام، وكان رأس السنة الجديدة يقترب، قالت رئيفة دون مقدّمات:

ـ أريد قضاء عيد رأس السنة مع عائلتي في تركيا!

ـ ومتى تسافرين؟

ـ غدًا، إذا كان ذلك ممكنًا!

وفي الغد سافرت رئيفة في بولمان ينطلق من دمشق إلى أنطاكيا مباشرة!

وعند الوداع بكت كثيرًا وهي تقول لنمر بالتركيّة:

ـ أحبّك! أحبّك! أحبّك! وسأعود. .

لكنّها ذهبت ولم تعد!

ـ ١٣ ـ

بعد شهور هتفت له من أنطاكيا، وهي تكاد تبكي من حبّها له، ومن صعوبة عيشها دونه، ومن شوقها إليه، وحال البؤس التي تعانيها وهي بعيدة عنه.

فكّر نمر بهدوئه المعتاد، دون أن يتّخذ موقفًا متسرّعًا، دون أن يخدعه بكاؤها، وبعيدًا عن الشماتة، أو النكاية، فالمرأة، حتى لو كانت ساقطة، تبقى ضعيفة، وفي مثل الوضع الذي رئيفة فيه، يَحسُن به أن يتذكّر الأيّام العشرة الأولى، التي منحته فيها نفسها بسخاء، وبكت من أجله، عازمة عزمًا صادقًا أن تبقى معه، كمديرة لأعماله في العلن، وعشيقته في السرّ..

هتف لها قائلاً:

ـ ما هو وضعك الآن؟

أجابته:

ـ في حالة إفلاس تامّ!

ـ والمال الذي أعطيتك إيّاه؟

ـ لم يبق منه شيء. . تبخّر كلّه، بسبب من أنّك أوصيتني أن أعيش عيش الخانم، وأن أساعد عائلتي لأنّني، بعد لقائي بك، صرت مسؤولة عن هذه العائلة، صرت «رأس العائلة» حسب تعبيرك.

تكرار كلمة العائلة، بهذه اللجاجة، بهذا القدر من الشعور بالمسؤوليّة عنها، وبالتفاني غير المعهود فيها، لفته بقوّة، ففي الماضي، عندما كان يوصيها بعائلتها وهي عنده في دمشق، كانت تجيبه: «وهل تحبّ أنت عائلتي بأكثر ممّا أحبّها أنا!؟».

في هاتف آخر، بعد مرّة غير قصيرة، قال لها صراحة:

ـ يا رئيفة أنت تبالغين في تصوير الوضع الصعب الذي تُعانينه، لأنّ الأشياء الثمينة التي أعطيتك إيّاها تكفي لأن تعيشي مرفّهة لمدّة عامين على الأقلّ!

ـ وهل أبيع هذه الأشياء العزيزة عليّ؟

ـ هناك أشياء زائدة عن حاجتك، أنا أعرف ما أقول!

ـ لا يمكن أن أبيع شيئًا يذكّرني بك!

ـ الأشياء الذهبيّة ليست تذكاريّة. . إنّها للبيع عند الحاجة، ويمكن تعويضها ببساطة!

ـ سأفكّر بالأمر. .

ـ فكّري جيّدًا. . تصرّفي. .

ـ شكرًا! سأتصرّف. . مع السلامة!

لم يصدّق نمر كلّ ما قالته. . هناك سرّ ما. . رئيفة كانت تتعاطى التجارة، تعرف اللاذقيّة وحلب. . وكانت معه في دمشق عدّة أشهر، سافرت معه، باندفاع بالغ، إلى الشارقة، كانت تتّصل، قبل سفرها، بامرأة هي تلميذة نمر، ومن أسرة دمشقيّة، وبعد أن كتب لها، وعلّمها الكتابة، استغلّت كلّ شيء لصالحها، أصبحت معروفة، ذات نفوذ، وصلات مُريبة، فابتعد عنها، ورفض مجرّد الظهور معها، في أيّ مكان عامّ.

لم تكن الرحلة إلى الشارقة موفّقة، فالندوة التي دُعي إليها دون المستوى اللائق، لكنّ رئيفة، التي تركب الطائرة لأوّل مرّة، كانت مسرورة جدًّا، وفي الشارقة أقامت صلات وطيدة مع المرأة الدمشقيّة، لا يُعرف مداها، لكنّها، في الشارقة، وفي اللاذقيّة، وحتى في دمشق، كانت رئيفة ذات طبع غريب، فهي تذهب إلى الأسواق، وتبقى ساعات كاملة فيها، دون أن تشتري أيّ غرض، مع أنّها تحبّ الاقتناء، وترتاح لأنّ نمر كان يحسم الأمور ويشتري لها كلّ ما تريد، وما تريده كان كثيرًا جدًّا، وخلال عام أو أقلّ، ذهبت إلى أنطاكيا وعادت إلى دمشق، مرّات عديدة، وكانت هذه المكّوكيّة، ما بين ذهاب وإياب، لها

هدف محدّد: نقل أنفس، وأغلى ما في بيت نمر، بعلمه أو دونه، من الذهب حتى الحرير الكافي لعشرين قميصًا!

التحليق بالحسن المأجور، له بداية ونهاية، ورئيفة كانت متسرّعة رخيصة في البداية، تملّقت بحسنها، وفحيحها كالأفعى، في سرير نمر، إلى أن كانت النهاية. ففي بداية حزيران، ولمّا يمضِ عام على لقائهما، هتفت من أنطاكيا تشكو سوء وضعها، فاقترح عليها أن تأتي إليه في دمشق، لكنّها راوغت قائلة: جواز سفري بحاجة إلى تمديد.. سألها:

ـ ولماذا التمديد وليس التجديد؟

ـ وقت التجديد لم يحن بعد! يكفي التمديد الآن.

ـ مدّديه إذن وتعالي..

ـ التمديد يحتاج إلى ثلاثمئة دولار أميركي.

ـ ألا تملكين هذا المبلغ الزهيد؟

ـ لا! مع الأسف!

ـ استديني وأنا أسدّد لاحقًا!

ـ سأفعل ذلك كما تقول!

وفي هاتف لاحق، أخبرته أنّها مدّدت جواز سفرها، وأنّها تقترح أن تأتي إلى اللاذقيّة لشراء بعض الأغراض، وطلبت منه

أن يكون بانتظارها في فندق الكازينو حيث ينزل دائمًا فوافق! إلاّ أنّها هتفت في اليوم التالي قائلة إنّ ابنها بدر سيأتي معها، فوافق، أيضًا، مرحّبًا، ولمّا جاءت، كان هناك جناح (سويت) مخصّص لها ولابنها، وتمّ كلّ شيء على ما يرام.

بعد الراحة والاستحمام، أعطاها نمر مبلغًا من المال بالعملة السوريّة، وفي اليوم التالي ألمحت إلى حاجتها إلى مبلغ آخ ثم آخر، وبدأت تشتري الثياب لابنها أوّلاً، ولها ثانيًا، ولبي في أنطاكيا ثالثًا، ونمر يراقب كلّ ذلك دون أيّ كلمة، فسيّارة حنين فادي تحت تصرّفها، ويبقى هو مع السائق زيد الخير في الفندق، وفي المساء يسهرون في المطاعم والملاهي التي تختارها.

كثرت المشتريات، تكدّست الأكياس، امتلأ الجناح بها، قال زيد:

ـ تعرف يا أستاذ ماذا في هذه الأكياس؟

ردّ نمر:

ـ يقول لي السائق حنين عن أشياء غريبة تشتريها بجشع هذه المرأة.. هناك الشاي والسكّر والرزّ وغيرها، وبكمّيّات كبيرة، تفيض عن حاجة بيتها! وأنت تدفع وتدفع المال بغير حساب.

ـ من قال بغير حساب؟

ـ كلّنا، نحن الذين نعمل معك، نعرف أنّك لا تحسب، هذه عادتك!

ـ هذا صحيح في الإنفاق، لكنّني أعرف جيّدًا ما أسحب من البنك!

ـ نحن معك.. لا نتدخّل ولكن نعرف.. سحبت خمسة آلاف دولار حتى الآن من اللاذقيّة، إضافة إلى المبالغ التي جلبتها معك من دمشق، وبينها ثلاثة آلاف يورو..

ـ وفوقها مئة ألف ليرة سوريّة، لا تزال في حزمتها كما استلمتها من المصرف التجاري السوري.. رئيفة ترغب باقتناء الأوراق النقديّة الخارجة من مطبعة النقد دون أن تمسّ.. وأنا هنا، لتلبية رغبات رئيفة..

ـ أنت حرّ.. المال مالك، وأنت حرّ بمالك!!

ـ ليس تمامًا.. رئيفة اشترت حِمْل جمل لا حِمْل سيّارة!

ـ وأنت دفعت ثمن كلّ ما اشترته!

ـ هذا صحيح.. إنّها تستغلّ وجودي معها، لتمرير كلّ هذا دون أن يسألها أحد عمّا معها، هذه هي خطّتها.. رئيفة هذه غير رئيفة التي عرفتها في الأيّام العشرة الأولى التي حدّثتكم عنها!

ـ صدق السائق «ن» إذن، في كلّ ما قاله عنها.

ـ كنت أعرف ما قاله عنها، لكنّني، بكلامه، عرفت ما كنت أعرفه مرّة أخرى، حسب تعبير الكاتب الفرنسي ألبير كامو..

ـ وبعدما عرفت كلّ هذا.. ماذا ستفعل!؟

ـ لن أفعل شيئًا إلاّ بعد أن نتشاور في الأمر.. أذهب معها أم لا؟

قال حنين فورًا:

ـ لا تذهب..

وقال زيد:

ـ الرأي رأيك أوّلاً وأخيرًا!

ـ كنت أنتظر هذا الجواب المتأرجح منك!!

ـ وماذا أقول!؟

ـ ولماذا أستشيرك إذن، إذا كنت لا تعرف ما تقول!؟

قال حنين:

ـ أنا أعرف ما أقول: لا تذهب!

قال زيد:

ـ وأنا مع ما قاله حنين..

قال نمر:

ـ سأفكّر قليلاً.. أين الكونياك؟

ردّ حنين:

ـ حاضر معلّم.. الكونياك والثلج وكلّ ما يلزم!

ـ وأحتاج إلى ثلاث زجاجات ويسكي (ريد ليبل!).

ـ لعيونك معلّم.. وفورًا!

قال زيد ضاحكًا:

ـ حنين حاضر لمثل هذه المهمّات.. ومثل البرق!

ـ وأنت؟

ـ لكلّ المهمّات الأخرى.. لا تفكّر بشيء.. أنا كفيل بالحقيبة، وبالثياب التي خارجها.. دورك أن تركب السيّارة فقط.. إمّا إلى الشام أو إلى تركيا!

في الصباح التالي، وقبل السفر، قال نمر:

ـ سأذهب مع هذه العاهرة إلى تركيا ـ ولكن لن أمسّ حتى زندها!

قال حنين:

ـ عشت معلّم..

ـ وأنا أحبّك لأنّك تقول لي يا معلّم.. سألتني زوجتي ماذا

تحبّ بحنين هذا؟ فأجبتها: كلمة معلّم! فهزّت رأسها أسفًا على عقلي!

انطلقت السيّارة باتّجاه كسب، بطيئة، مثقلة بحملها وبالأشخاص الثلاثة الذين فيها: نمر إلى جانب السائق، رئيفة وابنها جرمق في المقعد الخلفي، تخيّم على الثلاثة ظلال صمت هو الكآبة التي لا تقول ذاتها، لكنّها ترتسم على قسمات وجه نمر ورئيفة، اللذين يعرفان ضمنًا أنّهما في رحلة فراق لا لقاء بعده!

مرّوا بحواجز الحدود السوريّة والتركيّة وسط حفاوة بنمر، الكاتب الذي يعرفونه، يحبّونه، يقدّرون مكانته، وينتظرون أن يكون معه بعض كتبه، هي الأثمن لديهم من كلّ الهدايا الأخرى، لأنّها تحمل توقيعه بأسمائهم، مع كلمات تبقى كذكرى لديهم، والذكريات، كما يقول أحمد شوقي في أغنية جارة الوادي، «صدى السنين الحاكي!» التي تبقى طويلاً، وتنتقل من جيل إلى جيل.

رئيفة كانت مسرورة لأمر آخر، غير الكتب والذكريات والحفاوات من قِبَل رجال يحرسون الحدود، على الجانبين العربي السوري والتركي، وسرورها كان محدّدًا: وجود نمر معها، ونمر كان يعرف هذا، غير مكترث به، لمعرفته إيّاه دون أن يتكلّم عنه، فالكلام يعقبه عتاب، والعتاب صابون القلوب،

وهذا باطل الأباطيل كما قال «الجامعة» في سفره التوراتي، ما دامت القلوب لا تبقى على حال واحد، إنّها تخفق حينًا، وتكفّ عن الخفقان أحيانًا، والذكي من المحبّين، مَن يحسُّ ذلك من لمسة اليد، أو نظرة العين، أو رنّة الكلمة، أو حرارة الشفاه ولو كانت القبلة على الخدّ، «صحبتني على الفلاة فتاة/ عادة اللون عندها التبديل» ولماذا لا تتبدّل رئيفة وهي فتاة؟ هي أنثى، هي امرأة تبحث عن رجل، والبحث عن رجل يصير، في انحدار سلّم التبديل، بحثًا عن رجال، وهذا منطلق السقوط المؤدّي إلى جحيم اللّذّة، ومن ثم اللذائذ على حساب الكرامات..

سألت رئيفة والسيّارة تنحدر بهما إلى الحربيّات ثم أنطاكيا:

ـ أنت مصرٌّ على التوجّه نحو فندق أنطاكيا الكبير؟

أجاب نمر:

ـ كلّ الإصرار، وهذا ما قلته لك منذ البدء..

ـ أنت عنيد!

ـ ولكن صادق!

ـ وأنا غير صادقة؟

ـ وتسألين بعد!؟ أنت رميم و«سبحان من يحيي العظام وهي رميم».

ـ وكيف عرفت هذا، ومتى!؟

ـ منذ لمست يدك في فندق الكازينو في اللاذقيّة!

ـ سنتكلّم على هذا بعد وصولنا!

ـ وهذا أفضل. .

توقّفت السيّارة أمام الفندق، أنزل حقيبته الكبيرة، والصامصونيت، والكيس الصغير، وجاء النادل فحمل هذه الأمتعة إلى منصّة الاستقبال، حيث يعرفه المسؤول، طالبًا جناحًا (سويت) كما هي العادة، وتناول من جيوب سترته كلّ ما معه من نقود، أودعها في الأمانات، ورئيفة إلى جانبه، ومعها ابنها الذي طلبت منه أن يصعد مع نمر إلى جناحه لمساعدته، وقالت:

ـ متى أراك؟

ـ غدًا!

ـ أو بعد غد!

ـ لا فرق!

في الجناح، بعد وضع الحقيبة على القاعدة الخاصّة لذلك، قال لجرمق:

ـ شكرًا ومع السلامة!

ـ ألا أساعدك في فتح الحقيبة وتعليق الثياب؟

ـ لن أفتح الحقيبة في الوقت الحاضر. . خذ هذا المبلغ، وعندما أحتاجك أتّصل بك هاتفيًّا!

جلس نمر يدخّن مع القهوة، الجناح الذي هو فيه غير الجناح الذي يطلّ على الشارع الرئيسي، والذي أمضى فيه مع رئيفة «الأيّام العشرة» الأولى، فقال في نفسه: «تبدّل كلّ شيء، الجناح وأنا ورئيفة والطقس أيضًا!».

كان الحمّام، بمائه الفاتر، منعشًا، وبعد الاستحمام طلب قهوة مع سطل من الثلج، وراح يتذوّق كونياك ميتاكسا اليوناني مع شوكولا كلاكسي، كما هي عادته، ثم فتح غطاء الحقيبة فأخرج ثيابًا داخليّة، وُضعت على وجه الحقيبة، كما أوصى زيد مكرم أن يفعل، ومع الثياب الداخليّة أخرج قميصًا حريريًّا، وقال: بعد هذا لن تُفتح هذه الحقيبة، وغادر الجناح إلى المطعم، حيث كان ينتظره خبر مؤلم: ماتت السيّدة نازك رجمان بضربة سرطان قاتلة، قبل شهر من وصوله!

جلس إلى طاولة بعيدًا عن الناس، طلب زجاجة بيرة تركيّة، راح يشرب دون أن يأكل، انتفت شهيّته، تقلّص إحساسه محصورًا في بؤرة واحدة: سوء الحظّ الذي يلاحقه!

مع الزجاجة الثانية من البيرة المبرّدة تساءل: لماذا؟ بعد هذا

السؤال الذي لا جواب له، راح يشرب صامتًا، في نوع من اللامبالاة التي تصبح الحياة معها بغير هدف، بغير قضيّة، ومن لا قضيّة له ينتفي حلمه، يسقط في العدم، وهذا شرّ أنواع السقوط، إلاّ أنّ التجارب، والمصاعب، وكلّ أنواع الرزايا التي حوّلت نمر، من حديدة تجمّرت في نار، إلى فولاذة سقتها مياه السماء، كانت كفيلة ببعثه المنتظر، ولشدّ ما مات نمر، ولشدّ ما بُعث، ولشدّ ما ردّد، في ذاته، مع أبي الطيّب المتنبّي «كم قد قتلت، وكم قد متُّ عندكُمُ/ ثم انتفضت فزال القبر والكفن» والصدمة التي كادت تهدّه، لأنّ التي جاء لأجلها ماتت، ارتفعت رقاقة بيضاء، في ثنايا سحب بيض، هذه الصدمة، هذه المصيبة، مثلها مثل كلّ المصائب، تبدأ كبيرة، ثم تصغر، تصغر إلى أن تتلاشى مع مرور الزمن.

جاء والد رئيفة، في اليوم التالي، يدعوه إلى بيته، بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأولى لميلاد ابنه، من زوجته الثانية، بعد موت أمّ رئيفة زوجته الأولى، وافق على شرط، أن يكون قالب الكاتو الذي سيشتريه الأب تقدمة منه بهذه المناسبة، لم يمانع الأب، فأعطاه مئتي يورو، وقال وهما ينزلان في المصعد «ولكن يا أستاذ هذا مبلغ كبير! قالب الكاتو الصغير ثمنه لا يزيد عن عشرة يورو» أجاب نمر: «الباقي هديّة للصغير الذي سنحتفل بذكرى ميلاده».

المفاجأة كانت بوجود رئيفة، في سيّارة والدها الصغيرة، والمفاجأة الأخرى أنّ زوجته المريضة، صفراء اللون، كانوا قد استأصلوا ثديها المُصاب بالسرطان، في مدينة أضنة، وكانت رئيفة هي التي تقوم بواجب المساعدة، إلاّ أنّ أخت زوجة أبيها كانت موجودة في بيته، مع بعض النساء، وكان البيت تدبُّ في كلّ أنحائه فوضى غريبة، وأوساخ مقزّزة، وكان هناك شرّ ملحوظ، لم يأبه به نمر قائلاً في ذاته: «إذا كنت غريبًا فكن أديبًا»، إلاّ أنّ انفجار هذا الشرّ المكبوت تمرّد على كبته، انفجر فورًا، فرقع بدويّ شديد، حين قالت أخت زوجة الأب لرئيفة:

ـ وأنت ماذا جئت تفعلين هنا يا عائبة؟

ردّت رئيفة:

ـ أنت العائبة، يا قليلة الحياء! هذا بيت أبي!

ـ وهذا بيت أختي غير الداشرة مثلك!

الأب لم يقل كلمة واحدة، سمفونيّة الشتائم تطوّرت، صار الكلام على المكشوف، بالعربيّة والتركيّة، فسمع نمر بأذنيه، ما كان يعرفه بقلبه: رئيفة عاهرة، محتالة، مبتذلة، رخيصة، لم ينفع معها كلّ ما فعله نمر لأجلها، رفعها من الوحل، جعل منها سيّدة، خانم العائلة، أعطاها الكثير، المال وكلّ ثمين غيره، إلاّ أنّها عادت تتمرّغ بالوحل، حسب ما قالته أخت زوجة أبيها!

السمع غير التخمين، الظنّ ليس إثمًا دائمًا، الاحتيال عيبٌ، لكنّه عيبٌ صغيرٌ أمام العيب الأكبر، التكسّب بالجسد. رئيفة، بعد الليالي العشر الأولى، مارست الكذب بشكل فاضح، راوغت في الجواب عن سبب هذا الكذب، هذا التبدّل، هذا البكاء عند السفر، هذه الحقارة في قولها لنمر: «أحبّك، أحبّك، أحبّك» وهي تغادر بيته، بعد أن بشمت بما أخذت من مال ومتاع منه!

بعد انصراف المرأة التي فضحتها، ران السكون على البيت، أخت والدها حاولت تلطيف الجوّ، قالت لنمر وهي إلى جانبه: «على كلّ حال رئيفة ستتزوّج قريبًا!» لم يعلّق، لم يردّ، لم ينزعج حتى، لكنّه في طريق العودة إلى الفندق، رفض إلاّ أن يعود في سيّارة أجرة، وفي جناحه ابتسم ابتسامة إشفاق، على نفسه، وعلى رئيفة، وعلى المصير الذي انتهت إليه، مستخدمة الكذب الخلّبي، الذي لا ينطلي على مَن يعرف النساء في شجاعتهنّ، وفي تقحّمهنّ، وكذلك في الاحتيال الذي سبّبه الرجل وسطوته، أمّا نكران الجميل، والقضاء والقدر، فإنّهما يأتيان في السياق! الحيرة، التردّد، ضياع الهدف، تؤدّي كلّها إلى الهوان، ومن يَهُنْ يسهل الهوان عليه «فما لجرح بميّت إيلام!» رئيفة مثل القمر، في حالة كسوف، وليس حولها من يقرع النحاس، كما كان الناس يفعلون قديمًا، كي يترك الحوت القمر، فيعود إلى إشراقه في الليلة الظلماء، جاءت إلى نمر

تطلب ثلاثمئة دولار، كي تستأجر سيّارة تقودها بنفسها!

تأمّلها مستغربًا. . زهادة المبلغ الذي تطلبه، ردّ تحيّتها بمثلها، دونما حفاوة، أو دعوة لتناول القهوة معه، أو كلمة مجاملة تُقال للضيفة، احترامًا للأنوثة ليس إلاّ، ناولها المبلغ، وهو جالس، تلقّفته من يده ومضت بغير وداع، وفي اليوم التالي جاءت تدعوه للركوب معها، في السيّارة المستأجرة، وفي المصعد سألته:

ـ هل تخاف أن تركب في سيّارة أقودها أنا؟ لا تخف أنا سائقة ماهرة!

زورها بنظرة فيها إشفاق وفيها احتقار، هي تعرف، من معاشرته في أنطاكيا واللاذقيّة ودمشق، أنّه لا يخاف، لكنّه، في المقابل لا يرمي نفسه إلى التهلكة، أمّا ركوب سيّارة تقودها في المدينة، فليس فيه خطر، بل تسلية مجّانيّة يتعرّف خلالها على المزيد ممّا لا يعرفه، وآن الأوان كي يعرفه، ما دام جاء معها، لغاية في نفسه، وغايات لن تتحقّق في نفسها، وصار، بخبرته الضليعة في علم النفس، قادرًا على كشف كلّ ما تحسبه مستورًا في تصرّفاتها.

أخذته أوّلاً إلى بيت ابنتها، تعرّف على البنت وحماتها، كانتا لطيفتين، ودودتين، دعتاه إلى تناول الغداء أو العشاء معهما،

فاعتذر شاكرًا، ومن هناك أخذته إلى بيتها الجديد، الواسع، أطلعته على غرفة نومها، وغرفة ابنها ورأى أكداس الأكياس التي جلبتها معها قائلة: «كلّ هذا للتوزيع على العائلة والصديقات» فقال في نفسه: «بل هو للبيع!» ودون أن يسألها قالت إنّ أجرة بيتها الجديد باهظة جدًّا، فلم يهتمّ، لأنّه قدّر أنّ زوجها المقبل هو مَن سيدفع، لكنّه لاحظ التناقض في مجال الدفع، قائلاً في سرّه: إذا كان الزوج الآتي من «فلك الأزرار» سيدفع أجرة البيت ويُنفق على الأسرة، فلماذا لم يدفع لها أجرة السيّارة التي تركبها!؟

بعد عودة نمر إلى الفندق، زار مديره الذي أمّه عربيّة، وبينه وبين نزيل فندقه صداقة، حاملاً معه زجاجة ويسكي كبيرة، فاخرة، كهديّة وتذكار، وعندما سأله المدير عن رئيفة مديرة أعماله، أجابه «لم تعد مديرة أعمالي، لأنّها ستتزوّج قريبًا رجلاً يُقدّر أنّه يملك ما يكفي من المال، كي يُنفق عليها وعلى بيتها» لم يهتمّ المدير، أو هكذا رغب، فأدرك نمر أنّ المدير لم يقتنع بما سمع، لأمر يجهله، إلاّ أنّ هذا المدير قال وهو يودّعه: «السيّدة رئيفة تزورك كلّ يوم أكثر من مرّة، وتوصينا خيرًا بك.. إنّها محتارة، لا أدري لماذا، هذه السيّدة لها مشكلة!» فقال نمر ضاحكًا: «كلّ مشكلة لها حلاّل» وانصرف مودّعًا، شاكرًا المدير الذي نقله من الجناح الذي نزل فيه، إلى الجناح الذي يفضّله بسبب إطلالته على الشارع العامّ، والرئيسي في أنطاكيا.

بعد الظهر جاءت رئيفة، كان مستلقيًا على سريره العريض، فاستلقت بثيابها إلى جانبه، وكانت ترتدي سترة صوفيّة، بسبب البرد، فمدّ نمر يده ليفكّ زرّ السترة كي ترتاح جيّدًا، لكنّها صرخت بنبرة عالية:

ـ دعه!

انتفض نمر بعصبيّة، نزل عن السرير وقال لها:

ـ هل نسيت يا عاهرة، كم ارتميت في حضني وأنت عارية من اللقاء الأوّل!؟ وهل صرت شريفة بعد أن مارستُ الجنس معك لمدّة ستّ ساعات متواصلة؟ ليس من اللائق أن أشتمك وأنت عندي، وفي سريري، لكن ليس من الشرف في شيء أن تصرخي في وجهي، وأنا أفكّ زرّ الجاكيت الصوفيّة لأجل راحتك لا أكثر.. هيّا اخرجي من عندي يا قحبة، يا مبصقة للرجال الأنذال من كلّ صنف!

لم تردّ رئيفة بكلمة واحدة، أمسكها نمر بقوّة، وباليد الأخرى شدّها من شعرها، ودفعها في صدرها خارجًا، وأغلق الباب بضربة مدوّية وراءها!

بعد حوالى ساعتين، سمع نقرًا على الباب، فتحه وإذا رئيفة تدخل دون أيّ كلمة.. جلست، قدّم لها سيكارة فتقبّلتها شاكرة، ران الصمت على الجوّ، وبعد تدخين عدّة سكائر سألها:

ـ لماذا رجعت؟

ـ لأنّي رجعت.

ـ وإذا طردتك كما فعلت قبل قليل؟

ـ اطردني كما تشاء!

ـ وتعودين كما تشائين!

ـ أعود!

وضع نمر رأسه بين كفّيه، وراح يفكّر هادئًا، طارحًا على نفسه هذا السؤال:

ـ إذا كان البطن يجوع، فلماذا تلك النقطة في أسفل بطن المرأة لا تجوع؟ رئيفة تحبّك، لا تدري لماذا؟ هناك الشهرة، والكرم، والشجاعة، ومن أجل هذه الصفات تحبّك، لكنّها، في الوقت نفسه، تتألّم من الحرمان، وأنت، في هذا العمر المتقدّم، لا تستطيع، بالعلاج أو دونه، أن تبعث فيها اللّذّة التي توقف ألم الحرمان، أو حتى أن تشفيه، فماذا تفعل أنت؟ وماذا تفعل رئيفة؟

أشعل لها سيكارة، مسّد شعرها، قال لها بلهجة فيها عذوبة المودّة:

ـ لماذا فعلت هذا الذي أغضبني؟

ـ لا أدري!

ـ ولماذا ذهبت إلى اللاذقيّة، وأصررت على مجيئي معك إلى أنطاكيا، وأنت ستتزوّجين؟

ـ الزواج الذي تتحدّث عنه لا يزال فكرة، قد تصير أو لا تصير، لذلك لم أخبرك عنه، في اللاذقيّة أو هنا.

ـ وهذا البيت الكبير من سيدفع إيجاره؟ ويؤمّن نفقاته؟ أليس الرجل الذي تحبّينه، والذي بدّل حبّك له، موقفك منّي، وأنا أحدس بهذا، وعلى يقين من حدسي، وأنت تراوغين أو تنكرين، وأنا أدفع لك، وأعطيك، لا لأجل الحبّ، أو شهوة الجسد، لأنّني لم أعتد شراء أجسام النساء بالمال، بل أبذل في سبيل إنسانة أسعدتني لعشرة أيّام فقط، في بدء تعارفنا، وبعدها كانت كلماتها: «أحبّك، أحبّك، أحبّك!» غير صادقة، وكانت دموعها عند وداعي، آخر مرّة في دمشق، مثل كلماتها!

لم تبك رئيفة. كانت حزينة، ملتاعة، ضائعة، جامدة قسمات الوجه، معقودة اللسان، فقال نمر:

ـ لندع كلّ هذا، ألم يكن من عرفان الجميل أن ألقى منك، وأنا ضيفك هنا، معاملة فيها نوع من الكياسة؟

ـ بلى، كان من عرفان الجميل أن أضمّك إلى صدري وأنا عارية معك في السرير، لكنّني لم أفعل هذا لأجلك!

ـ لأجلي؟

ـ نعم لأجلك، كي تنساني، وتضع لولعك بي حدًّا لا تتجاوزه، وعندئذ ينسى أحدنا الآخر!

ـ لو قلت هذا الكلام قبل سفرنا من اللاذقيّة إلى أنطاكيا، لكان مقنعًا أكثر!

ـ هذا الذي جرى، وكلّ ما قلته عنّي في نوبة غضبك كان صحيحًا.

ـ أنا أفهمك تمامًا يا رئيفة. . قلبك معي وشهوتك الجسديّة مع غيري!

ـ وهذا ما سيجعلني معذّبة بقيّة عمري. . ما رأيك أن نتغدّى في مطعمنا المعتاد؟

ذهبا إلى المطعم غير البعيد سيرًا على الأقدام، أعطاها ورقة نقديّة لدفع الحساب فأخذتها، دخلا محلاًّ مجاورًا للصرافة فأبدل مبلغًا من نقوده، وأعطاها جزءًا يسيرًا منه فلم ترفض، وفي الفندق، بعد العودة من المطعم، قال لها:

ـ أنا مسافر بعد غد.

ـ ليكن الله معك.

وفي الغد ذهبا إلى مكتب السيّارات العاملة ما بين أنطاكيا

وسورية، فاستقبلهما صاحبه بترحيب حارّ، وقال لنمر:

ـ يا أخي أنت كاتب شهير، وفي السويديّة يسألون عنك بإلحاح!

ـ أنا مسافر غدًا.. تحيّاتي لك ولكلّ من حولك، ولكلّ من يسأل عنّي.. أريد سيّارة جيّدة، تكون على باب الفندق في الساعة التاسعة صباحًا!

في طريق العودة قالت رئيفة:

ـ سأكون غدًا صباحًا في وداعك.

ـ لا ضرورة لذلك..

ـ سأكون في وداعك من كلّ بدّ.

في الصباح، عندما أنزل حقائبه، كانت رئيفة تنتظره في بهو الفندق، وفي الساعة التاسعة جاءت السيّارة، فخرج مدير الفندق لوداعه، وقبل أن يركب سيّارته قدّم لرئيفة ٣٠٠ دولار قائلاً:

ـ هذه الدولارات لإبقاء السيّارة معك أسبوعًا آخر.

أخذت المبلغ وهي صامتة، مدّت يدها فلم يصافحها، تجاهلها، صافح المدير وشكره، غير أنّ رئيفة أمسكت بالسيّارة كأنّها لا تريدها أن تسير، ولمّا لم تفلح وقفت مكانها جامدة، وفي طريق العودة الحزين، كان السائق يتكلّم بهاتفه الخليوي

ويقول لنمر: رئيفة تسأل عنك، رئيفة توصيني بك خيرًا، وفي اللاذقيّة، أمام فندق الكازينو كان حنين فايد ينتظر، فقبّله وقال:

ـ رئيفة اتّصلت بي، لأكون بانتظارك.. لذلك أنا هنا منذ قليل..

لم يجب نمر، أطرق قليلاً، ودخل الفندق هادئًا، ساكنًا، وأغلق باب الجناح عليه.